الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة غرداية

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ

دروس في مادة: تاريخ موريتانيا الحديثة

مقدمة لطلبة السنة الأول ماستر تاريخ المغرب العربي الحديث

في السداسي الثاني

إعداد الأستاذ:
احمد جعفري

الرتبة: أستاذ محاضر أ

الموسم الجامعي: 2022-2023م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة غرداية

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ

دروس في مادة: تاريخ موريتانيا الحديثة

مقدمة لطلبة السنة الأول ماستر تاريخ المغرب العربي الحديث

في السداسي الثاني

إعداد الأستاذ:
احمد جعفري

الرتبة: أستاذ محاضر أ

الموسم الجامعي: 2022-2023م

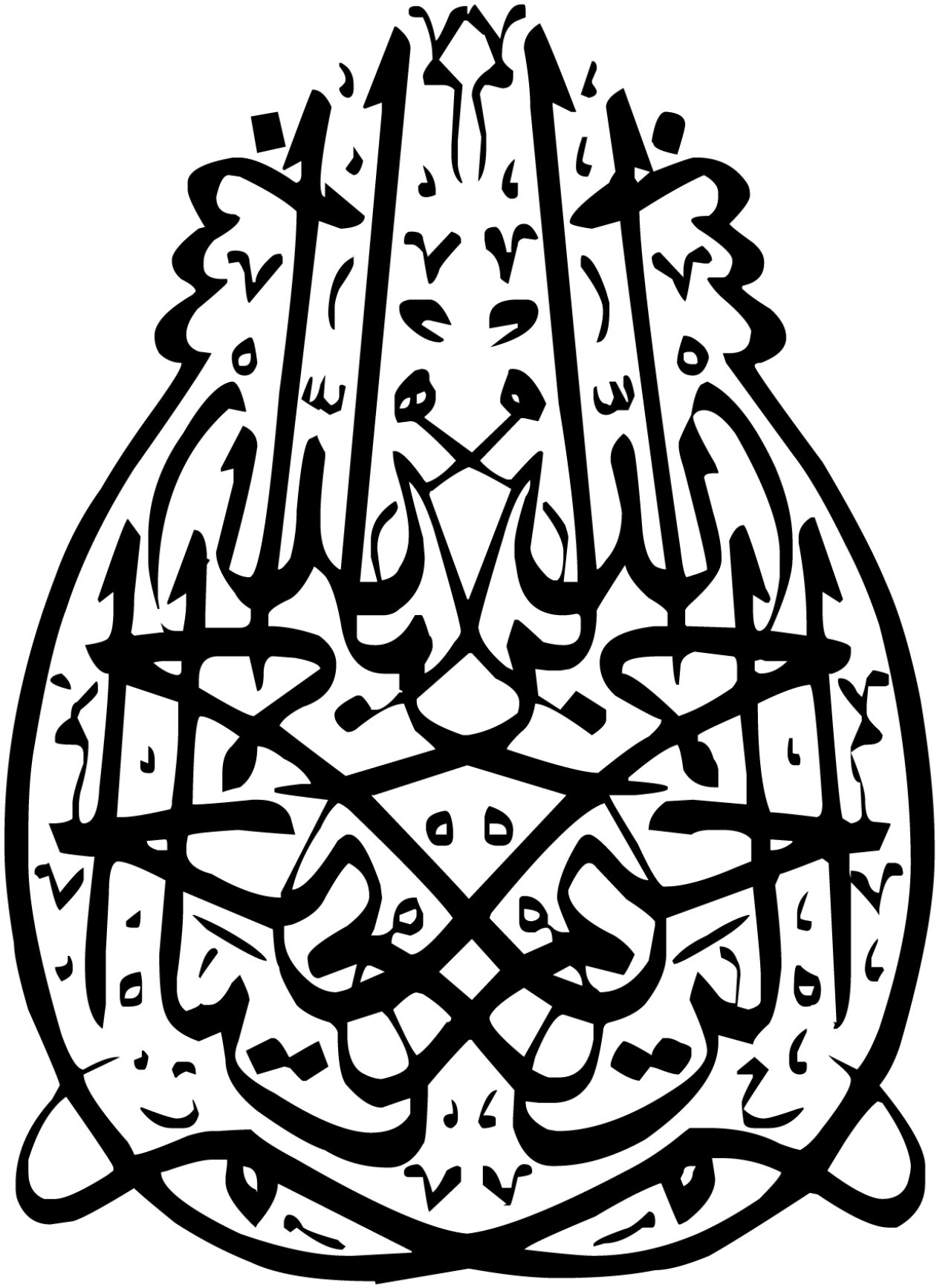

مقدمة المطبوعة

أهمية المادة ومكانتها في التخصص: مادة تاريخ موريتانيا الحديثة من المواد الأساسية والقاعدية لدراسة تاريخ بلاد المغرب الحديث يتم تناولها ضمن السداسي الثاني لذات التخصص، وتحمل المادة أهمية بالغة نظير الموقع والامتداد الجغرافي لبلاد الحوض الموريتاني ضمن ابعادها المغاربية العربية والافريقية لذلك يضعها الكثير من المؤرخين كمجال انتقالي بين ضفتي الصحراء ولاندماج كثير من الأعراق والثقافات بها، لذلك فهي تمكن الطالب والدارس من فهم المجتمع الموريتاني واصول تكوينه وحياته السياسية وانفعالاته الاقتصادية في بعدها المغاربي الصحراوي والافريقي

2-الهدف من تدريس المادة : نهدف من خلال تدريس مادة تاريخ موريتانيا الحديثة الى انفتاح الطالب على جزء هام من التاريخ المغاربي المقصى نوعاً ما في الدراسات البحثية المغاربية في الفترة الحديثة، في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومرحلة الكشوف الجغرافية وصولا الى استعمار موريتانيا، مما يمكن الطالب من تكوين صورة تاريخية كاملة عن تاريخ موريتانيا وعلاقات المجال المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية

3-محتوى المادة : (يأتي التفصيل لمحتوى المادة في الدرس التمهيدي) وتتضمن في الاجمال أصول التسمية وأصول السكان والتعمير والهجرات العربية الى المنطقة، والدراسة الاجتماعية والحياة الثقافية في موريتانيا، إضافة الى العلاقات السياسية بين القبائل، والحروب، وصولا الى طلائع المستكشفين والاستعمار.

4- المصادر والمراجع : مصادر المادة قليلة ونادرة خاصة التاريخية منها المتعلقة بتاريخ موريتانيا لكن يمكن الاستئناس بما توفر منها في شكل كتب الحوليات وحوادث السنين، إضافة لما يمكن استخلاصه من كتب النوازل والفقه والشعر لتميز الموريتانيين في ذلك، والفترة المتأخرة من التاريخ الحديث لموريتانيا يسعفنا قليلا ما كتبه الرحالة والمستكشفون البرتغاليون والفرنسيون.

وعن المراجع يمكن العودة الى الدراسات الاكاديمية المتأخرة التي حاول من خلالها الموريتانيون جمع ما اندثر من تاريخ بلادهم وتميزت معظم تلك الكتابات بالعمق والجدية والموضوعية الى حد بعيد. ومن هذه المصادر والمراجع:

-احمد بن الأمين الشنقيطي، **الوسيط في تراجم ادباء شنقيط**، مطبعة المدني، القاهرة، 2008م.

- خليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة ...والرباط، مكتبة المنتدى الإسلامي**، تونس 1987م.

-محمد بوزنكاض، **الصحراء في العلاقات المغربية الافريقية**، ط1، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2015م

-عبدالودود ولد عبدالله، **الحركة الفكرية في بلاد شنقيط حتى نهاية القرن الثاني عشر-(18)** مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2015م.

-البرتلي، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور "معجم تراجم العلماء في موريتانيا وما يليها من مناطق الصحراء والسودان"** تحقيق عبد الودود ولد عبد الله، احمد جمال ولد الحسن، دار نجيبويه، القاهرة، 2010، ص12.

5-الصعوبات المحتملة في اكتسابها : تكمن صعوبة اكتساب المادة أولا في الزمن المخصص لها والذي لا يتجاوز سداسيا واحداً، فلا يعقل ان يستوعب الطالب تاريخ موريتانيا في الفترة الحديثة وبجميع تفرعاته وعلاقاته في أقل من عشرة أسابيع، يضاف الى ذلك ندرة المادة المصدرية وغيابها في بعض الأزمنة مثل فترة الأرض السائبة. وعن المادة المصدرية أيضا نجد البعض منها يتوفر في مادته الأصلية وفي حاجة الى ترجمة مثل اللغة البرتغالية والهولندية.

الدرس الأول: (التعريف بالمادة ومحتوياتها)

1-اسم المادة ورمزها المعتمد في المقرر الوزاري : تاريخ موريتانيا الحديثة

2-مكانة المادة ضمن برنامج الدراسة :

-الوحدة التعليمية: الأساسية

-عدد المحاضرات السداسية: (أربعة عشر محاضرة)

-الحجم الساعي الأسبوعي: ساعة ونصف والسداسي واحد وعشرون ساعة

-المستوى المستهدف بها: (السنة الأولى ماستر تاريخ المغرب العربي الحديث)

-طريقة التقييم فيها: امتحان كتابي للمحاضرة وتقويم مستمر للأعمال الموجهة

-معامل المادة02، الأرصدة 05.

3-الأهداف المرجوة من تدريس المادة: يتعرف الطالب الى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لموريتانيا في الفترة الحديثة ووضعها ضمن نطاقها المغاربي والإفريقي.

4-المعارف المطلوب اكتسابها مسبقا لمتابعة سير الدروس: يجب على الطالب ان يكون على اطلاع ومعرفة بمراحل تشكل المجال المغاربي الاجتماعي والاقتصادي، وبناءً عليه مساهمة القبائل الصنهاجية والعربية في تشكل المجتمع الموريتاني، وعلى الطالب ان يكون على معرفة بالمؤثرات السياسية والاقتصادية التي عرفها الحوض الموريتاني خلال تلك الفترة خاصة الرحلات الاستكشافية الأوروبية ومسار الطرق التجارية، وحملة المنصور السعدي على بلاد السودان.

5-المراجع والمصادر الأساسية للمادة: رغم قلة تلك المصادر وندرتها فيمكن العودة الى:

-الطرائف والتلائد للمختار الكنتي الكبير

-تاريخ بن طوير الجنة

-محمد بن ابي بكر الصديق البرتلي **"فتح الشكور في معرفة اعيان علماء التكرور"**

6-محتوى المادة :

-مقدمة المطبوعة

1-الدرس الأول: التعريف بالمادة ومحتوياتها

2-الدرس الثاني : الجغرافيا واصول التسمية

3-الدرس الثالث : أصول السكان وتشكل المجتمع

4-الدرس الرابع : من دولة المرابطين الى بني حسان (الفترة الغامضة من التاريخ الموريتاني)

5-الدرس الخامس : حرب شرّبة الكبرى 8-9هـ/14-15م

6-الدرس السادس : التحولات السياسية في موريتانيا بعد حروب شرّبُبَة

7-الدرس السابع : نشاة المدن والحواضر الموريتانية

8-الدرس الثامن: البنية الاجتماعية في موريتانيا

9-الدرس التاسع : الحياة الثقافية في موريتانيا

10-الدرس العاشر: المحاضر الموريتانية نشأتها وادوارها

11-الدرس الحادي عشر: تجارة القوافل

12-الدرس الثاني عشر: القضاء في بلاد شنقيط

13-الدرس الثالث عشر: القوافل والطرق التجارية في موريتانيا الحديثة

14-الدرس الرابع عشر: المستكشفون الاوربيون في موريتانيا

الدرس الثاني: موريتانيا الجغرافيا واصول التسمية

تمهيد:

حمل المجال الجغرافي لموريتانيا الحديثة تباينا كبيراً وسجالاً بين الجغرافيين والمؤرخين وهو ما انعكس بدوره على مسميات ذلك المجال تساوقا والفترة الزمنية التي صيغت فيها التسمية فمن التكرور الى بلاد شنقيط الى تراب البيضان والأرض السائبة وغيرها الكثير، نجد ان المجال الجغرافي بدوره كان متحركاً حسب النفوذ الفعلي والانسجام القبلي والحدود الطبيعية

أولاً المجال الجغرافي:

يصعب تحديد حدود قارة لموريتانيا في الفترة الحديثة، وبالعودة الى المصادر الموريتانية يمكن الاستئناس بالحدود التي ذكرها صاحب الوسيط "يحد القطر الشنقيطي شمالا بالساقية الحمراء وهي تابعة له وجنوبا بقاع بن الهيب وهو تابع له وشرقا بولاتة والنعمة وهما تابعان له وغربا بالسينكال المعروفة عند الشناقطة باندر وهي خارجة عنه"[1].

والظاهر ان بن الأمين يعني بولاته والنعمة المناطق التابعة لهما وليس المدينتين فحسب، واقتصر عليهما كونهما أبرز المراكز الحضارية في المنطقة الشرقية التي تشمل اليوم أجزاء تابعة لدولة مالي[2].

وقد رسم الشيخ محمد المامي حدود البلاد من الجنوب الى الشمال فقال انها تمتد من نهر شمامة إزاء نهر السنغال جنوبا الى الحمادة (جنوبي سجلماسة) والساقية الحمراء حد بلاد السوس شمالاً.

ويرى محمد بوزنكاض أنّ البحث في ماهية جغرافيا موريتانيا او تراب البيضان كما يسميها تنطلق من خصوصية تتسم بحضور المجال بنوع من التعقيد يتداخل في تحديده المادي الاقتصادي بالثقافي والأنثروبولوجي بالتاريخي والسياسي، ذلك ان معظم التحديدات القائمة استقت مضمونها من الاستناد الى مرجعية جغرافية وتاريخية تعتبر وجود حدود ثابتة لبلاد البيظان ما بين واد نون ونهر السنغال، وتجد في هذه المعالم الطبيعية

---

[1] –احمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم ادباء شنقيط، مطبعة المدني، القاهرة، 2008م، ص140.

[2] – خليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة ..والرباط، مكتبة المنتدى الإسلامي، تونس 1987م، ص20.

الكبرى حدوداً جغرافية للمنطقة في تجاهل للطبيعة المتحركة للمجال الذي يستمد خصوصيته وحمولته من معين ثقافي واجتماعي يجعل المعنى ينصرف للدلالة على المنطقة التي تسود فيها الحسانية وتعبيراتها الثقافية المختلفة، وتثبت أهمية هذا المحدد الثقافي ان مفهوم بلاد البيظان لم يتم التأسيس له اكاديميا ولم تتبلور مشروعيته المعرفية الا خلال القرن التاسع عشر[1].

وانطلق المؤرخ المختار بن حامد من المعيار التاريخي-اللغوي معتبراً هذه المنطقة وحدة تاريخية" كونها عرفت مؤثرات تاريخية واحدة كما انها وحدة بشرية لان سكانها يتكلمون لغة عربية ملحونة تسمى "الحسانية" وهي اقرب اللهجات الى اللغة العربية الفصحى، ومن نفس المعيار ينطلق محمد ولد داده الشنافي مبينا ان الفضاء الشنقيطي هو المجال الصحراوي الذي كان مسرحاً لعمليات الحركة المرابطية مضيفا الى خصائص هذا المجال حلول اللغة العربية فيه محل اللهجات البربرية منذ القرن الثامن (14م)[2].

وركز الباحث الإنجليزي "نوريس" على المعيار الثقافي فاعتبر الخصائص اللغوية والأدبية هي الفيصل في التمييز بين الشناقطة وغيرهم ودليله أنّ "الشعر الحساني يوحد الشناقطة وان اختلفت بهم سبل السياسة فهم يتذوقونه في موريتانيا كما في تندوف وفي منطقة السوس التكني كما في إقليم ازواد، ومن الباحثين من فضل اعتماد المعايير الاثنوغرافية مثل تيودور مونو الذي وضع خريطة للمجموعات الثقافية بالصحراء الكبرى انطلاقا من تنوع اشكال رحل الجمل. وخلص في النهاية الى ان الرحل الشنقيطي له ميزات يصعب تحديد أصولها وان كانت تسهل مهمة الباحثين عن معايير التصنيف.

ونجد هذا المنحى التصنيفي عند "روبير موتناي" الذي اعتبر منطقة وادي نون وجبل باني حدا فاصلا بين اسلوبين من أساليب التنظيم السياسي والاجتماعي معتمدا المعيار الاتنولوجي حيث بنى تقسيمه على ملاحظة شيوع عادة "الذبيحة"[3] الى الجنوب من واحات وادي نون وباني وغيابها شمال هذه المنطقة.

---

[1] -محمد بوزنكاض: الصحراء في العلاقات المغربية الافريقية، ط1، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2015م، ص45.

[2] -Chennafi, (M), sur les traces d'Awdagust : les tegdawast et leur ancienneté : recherches sur Aoudagost, paris, 1970, p100.

[3] -الذبيحة، عقد حماية يلزم المذبوح له بإجارة الذابح ، ينظر محمد سالم بن عبدالحي: جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تحقيق محمد ناعمي، الرباط1992م، ص66.

وعلى العكس من مونتاي يعتبر الضابط الفرنسي "فوازان" ان الحد الشمالي لبلاد شنقيط هو أقل حدودها وضوح معالم ويشكل هذا الحد حسب رأيه خط يمر بتندوف وآدرار وتوات ثم يلتقي بالحد الشرقي في منطقة تنزروفت، اما الحد الجنوبي فتشكله الضفة اليسرى لثنية النيجر ابتداءً من مناطق غاو وغندام وصولا الى نهر السنغال عبر النعمة ونيورو ثم تحاذي الحدود الضفة الشمالية لنهر السنغال متجهة الى مصب النهر في المحيط الأطلسي، اما الحدود الغربية والكلام دوما للرائد فوازان فتبدا من مصب نهر السنغال محاذية الشاطئ الأطلسي حتى تصل الى منطقة درعة[1].

ويقترب تحديد (فوزان) من التعريف الذي وضعه المختار بن حامد في مقدمة الجزء الجغرافي من موسوعته حياة موريتانيا، حيث أوضح ان المنطقة التي سيتحدث عنها في كتابه (أوسع من حدود الجمهورية الإسلامية الموريتانية الحالية–فهو يتحدث بالإضافة الى موريتانيا طبعا عن المناطق الأخرى المجاورة التي تربطها وحدة اللغة والعادات والتقاليد وهذه المنطقة هي في الشمال منطقة الصحراء التي كانت خاضعة للاستعمار الاسباني في الشرق منطقة في غرب وشمال جمهورية مالي حيث مضارب قبائل كنته والبرابيش والقبائل العربية الاخرى[2].

ويظهر من هذه التعريفات والتحديدات ان المجال الشنقيطي انما صاغته التطورات السياسية والتحولات السكانية التي عرفتها منطقة غرب الصحراء خلال القرون الخمسة التالية لقيام الحركة المرابطية.

ثانياً: أصول التسمية:

عرفت المنطقة بأسماء متعددة في مراحل تاريخية مختلفة تباينت دلالاتها اثنوغرافيا وجغرافيا وسنقف على الأسماء ذات الدلالات التاريخية والجغرافية الهامة، وهي في اغلبها أسماء مرتبطة بدول وامارات حكمت البلاد أو أجزاء منها، او بعهود اشعاع ثقافي عرفته البلاد الموريتانية

1–صحراء الملثمين:

كان الصنهاجيون المقيمون في الصحراء اهل لثام في قديم عهودهم ولذلك غلب عليهم اسم (الملثمين) ونسبت اليهم الأرض فسميت "أرض الملثمين"، وما نسبت بلاد شنقيط لهؤلاء الملثمين إلاّ لانهم كانوا في

[1] –Vosin,(Ch), « l'islam maure », Mémoires du CHEAM, n1009, p1.

[2] –عبدالودود ولد عبدالله: الحركة الفكرية في بلاد شنقيط حتى نهاية القرن الثاني عشر–(18) مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2015م، ص40.

قرون الإسلام الأولى سكانها الغالبين عدداً ونفوذاً، فكانت قبائل صنهاجة الثلاثة (لمتونة ومسوفة وكدالة) تنتشر ي اركان البلاد وفيها اقاموا دولة انجبت بعد قرنين وزيادة دولة المرابطين[1].

2-بلاد التكرور:

عرفت بلاد شنقيط باسم بلاد التكرور في مرحلة سابقة واعتمد ابوعبدالله محمد الطالب البرتلي هذه التسمية في تاليفه عن اعيان المنطقة (فتح الشكور في معرفة اعيان علماء التكرور) وقال في تعيين المنطقة "التكرور إقليم واسع ممتد شرقا الى ادغاغ ومغربا الى بحر بني الزناقية وجنوبا الى بيط وشمالا الى ادرار"[2].

ورسم بابا بن الشيخ سيديا حدود البلاد بتعيين مناطقها فقال عن بلاد آدرار وتكانت والقبلة والساحل والحوض الى بلاد السودان هي بلاد التكرور، والتكرور في الأصل علم على مدينة ذكرها البكري وقال انها كانت على ضفة النهر.

واختلف المؤرخون في تحديد موقع هذه الدولة او المنطقة التي تعرف باسم (التكرور)بين حوض نهر السنغال ونهر النيجر ومنطقة ولاته[3].

3-شنقيط:

كانت شنقيط علماً لهذه البلاد عند اهل الامصار على حد قول سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم، وما عرف هذا الاسم الا بعد بروز مدينة شنقيط كعاصمة للعلم، ومنطلق للحجيج، وقد كان ذلك بعد تأسيسها بقرون، وخصوصاً مع بداية الالفية الهجرية الثانية، وقد استخدم احمد بن الأمين (ت1331هـ/1913م) الاسم في كتابه الوسيط في تراجم أدباء شنقيط وقال ان الكلمة تكتب بالقاف والجيم وانها كانت في العصر الأول تكتب بالجيم فقط.

ومصدر الاختلاف ان الكلمة تنطق في العامية بكاف معقودة وهي تساوي الجيم المصرية. وغالب شان الشناقطة ان يقلبوا القاف كافا معقودة في اللهجة العامية، يقولون، قام، قال، قرأ، قبلة، قدم. فينطقون

---

[1] -خليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة ...والرباط، مرجع سابق، ص19.

[2] -البرتلي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور "معجم تراجم العلماء في موريتانيا وما يليها من مناطق الصحراء والسودان" تحقيق عبدالودود ولد عبدالله، احمد جمال ولد الحسن، دار نجيبويه، القاهرة، 2010، ص12.

[3] -خليل النحوي: المرجع السابق، ص40.

القاف في جميع هذه الكلمات واضربها قافا معقودة (جيما مصرية) وإن كانوا يبقون القاف أحيانا على أصلها فينطقونها فصيحة كما في قلم، قبر، قمر ومستثنيات أخرى نادرة[1].

4-بلاد المغافرة:

لم تشتهر البلاد بهذا الاسم، وإنما نعتها به بعض مؤلفيها مثل سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم ومحمد فال بن بابا، وتحيل هذه التسمية الى عهد تاريخي متأخر، فمعلوم ان المغافرة هم احد بطون بني حسان نزحت الى بلاد شنقيط ضمن الموجات العربية التي دخلت البلاد بين القرنين 7 و9 الهجريين، وقد ملأت هذه القبائل المهاجرة جزءً من الفراغ السياسي الكبير الذي تركته دولة المرابطين.

وعلى الرغم من المهاجرين لم يكونوا من المغافرة فقط، إلا انهم كانوا اقوى المجموعات العربية شوكة وانفذها سلطة، مما يبرر تغليب النسبة إليهم، وقد بدأ المغافرة يبسطون سيطرتهم على البلاد عندما انتصروا على أبناء عمومتهم أولاد رزق في معركة انتتام (20كلم شرق الركيز) سنة 1040هـ/1630م، وبعد ذلك بسنتين تأسستا امارة الترارزة والبراكنة[2].

5-تراب البيضان:

يعرف العرب الشناقطة في اللهجة الحسانية ب "البيظان"، وقد استخدم الشيخ بابا بن الشيخ سيديا مصطلح "تراب البضان" دالا على بلاد شنقيط، ووردت أيضا في تقارير كوبولاني 1905م، اول حاكم فرنسي لبلاد شنقيط، واحتفظ بها بعضهم الى جانب كلمة موريتانيا لتوضيح المقصود بالاسم الجديد، وكانت الشكليات الإدارية الفرنسية تحمل في أوائل القرن الاسمين "موريتانيا" بالفرنسية و"تراب البيضان" بالعربية، لكن المستعمر لم يلبث أن أشاع موريتانيا اسماً وحيداً للبلاد التي استعمرها وابتعث اسمها الأخير من مرقده الروماني.

والظاهر ان مصطلحات أخرى مثل **المغرب** و**اقصى المغرب** كانت لها في الغالب دلالات نسبية. فتطلق عند مؤلفي تنبكتو وازواد على نفس إقليم شنقيط لوجود هؤلاء المؤلفين في التخوم الجنوبية الشرقية القصوى لهذا الإقليم. وتطلق عند مؤلفي ولاة على منطقة القبلة في الجنوب الغربي لبلاد شنقيط[3].

---

[1] -خليل النحوي: نفسه، ص40.

[2] -خليل النحوي: المرجع السابق، ص22.

[3] -عبد الودود ولد عبدالله: المرجع السابق، ص37.

أما الفقهاء فغالباً مايشيرون الى هذه البلاد باسم "بلاد السيبة" او "البلاد السائبة" وهو اصطلاح أقرب الى الوصف منه الى العلمية، وهناك أسماء أخرى تداولت في دوائر ضيقة وفي سياق فكري خاص بالقرن 19م لا يسع المجال لذكرها[1].

وبغض النظر عن مشكل الاختيار بين الأسماء وتحديد العلاقات بين المصطلحات (أهي علالقة ترادف ام تداخل ام تجاور ام صراع) يظل التحديد الإقليمي للمجال موضوع التسمية، أمر يحتاج الى اكثر من دراسة وبيان.

[1] –من بين هذه الأسماء، "المنكب البرزخي، و"الايالة الشنظورية وغيرها

الجمهورية الاسلامية الموريتانية

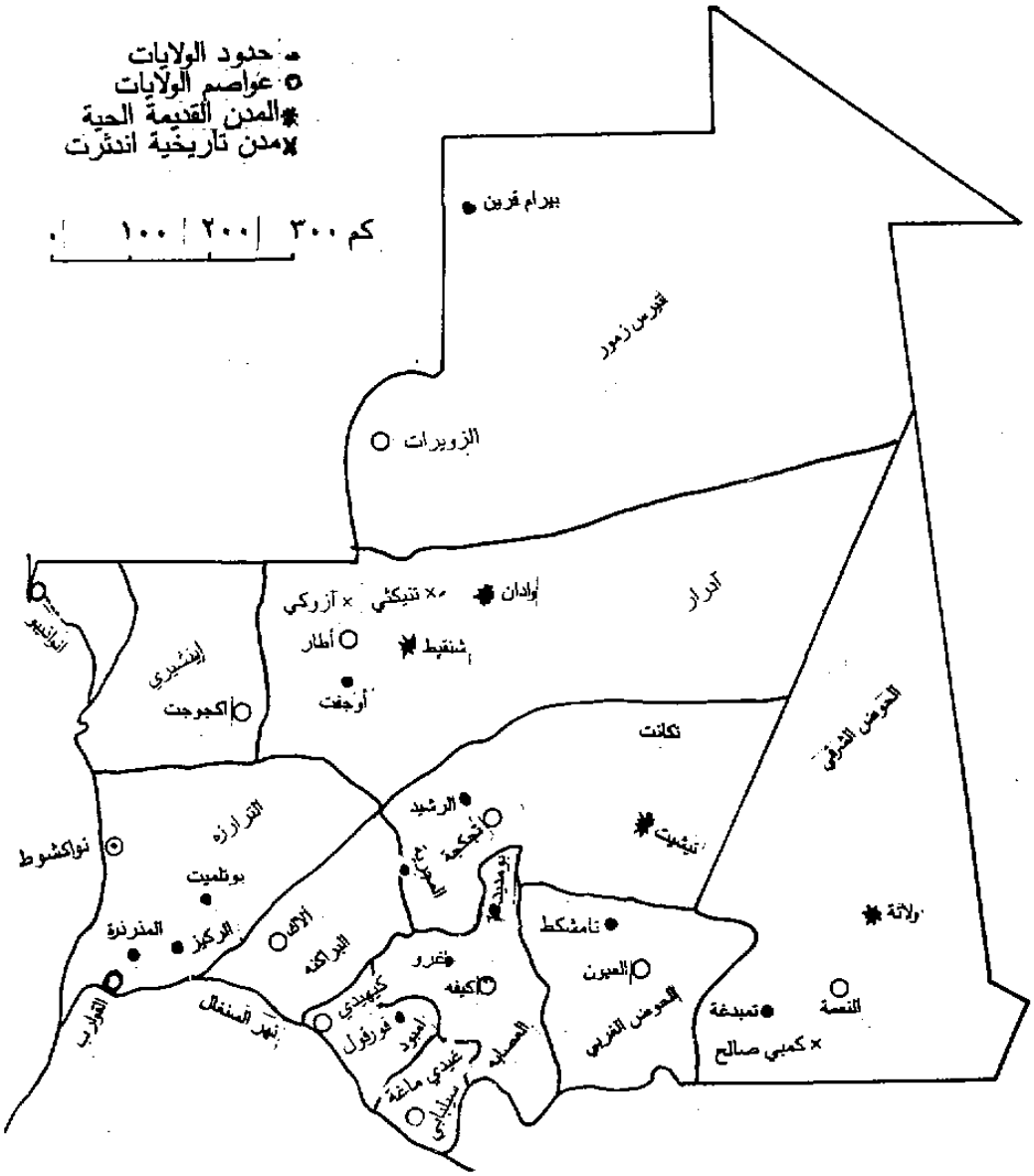

الدرس الثالث: أصول السكان وتشكل المجتمع

تمهيد

عرفت بلاد شنقيط ومنذ القدم هجرات بشرية متنوعة الاعراق ومختلفة المشارب ساهمت في رسم معالم المجتمع الموريتاني وصياغته على نحو ما هو عليه اليوم، على أنّ هذه الصياغة مرّت عبر مجموعة من المراحل تحكمت فيها مكانة المجموعات البشرية وقوتها وأصولها وتكيُّفها مع المجال الصحراوي.

1-سكان موريتانيا القدماء:

تشكل المجتمع الموريتاني ضمن بنية سكانية قديمة صاغتها تحولات تاريخية معقدة لاسيما من عهد المرابطين الى بني حسان، وأشهر سكان البلاد هم قبائل صنهاجة التي قدمت الى الإقليم ضمن هجرة قبائل البربر التي غادرت افريقيا الشمالية خلال القرن الثالث الميلادي، وتوجهت نحو الغرب، وبدأت احتلال الصحراء من الشمال، مع أنّ بدايات هذه الهجرة كانت موغلة في القدم أي قبل الميلاد، وقد دفع هؤلاء امامهم مجموعات أخرى لها صلة قربى بأهل العصر الحجري الحديث، ودفعهم الجفاف التدريجي للبحيرات فيما بعد الى اللجوء لضفاف البرك المائية واودية الظهر العليا والسفلى منها ثم قادهم القحط الى الانتظام في قرى اخذت نشاطاتها في التزايد مع توافد الجماعات الجديدة[1].

وفي زمن بعيد نسبيا أي قبل 2800 الى 2000 قبل الآن اصبح البربر حاضرون في عموم الإقليم وانضافت نقوشهم الصخرية الى نقوش سابقيهم، وهؤلاء البربر كانوا اكثر تكيفاً مع ظروف القحط الجديدة في الصحراء الكبرى من سكان القرى، وذلك بفضل النحاس ثم الحديد، وعاشوا في القرى التي بدأ سكانها في التناقص، وقد ساهم البربر في هذا التناقص لما لهم من دور في تغيير الأوضاع ثقافياً وديموغرافياً، وفي ارغام السكان الأوائل على الهرب، مع أنّ هذه المسألة الأخيرة في حاجة الى برهان، وقد جرى نقاش مطول (داكار1976م) حول حقيقة عنصر الاثيوبيين الذين ذكرهم هيرودوت، وأشار الى انهم ينتشرون في الصحراء الكبرى، ولم يتم التوصل لحد الآن الى معنى "أصحاب الوجوه المحروقة" التي وصف بها المؤرخ اليوناني سكان

[1] -حماه الله ولد السالم: تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007م، ص20.

الصحراء، بعد منتصف الالف الثاني قبل الميلاد جابت الصحراء عربات ذات عجلتين أو أربع أحيانا تجرها الخيول غالباً والثيران نادراً.

وتطرح هذه العربات مشكلا دقيقاً يناقشه المختصون منذ زمن طويل، وبالفعل فإننا لا نعرف عن هذه العربات غير تمثيلها على الصخور في 800 مكان في عموم الصحراء، ولا شيء غير ذلك الا الاطار الصخري، ومع ذلك فإن أصلها واضح، فالعربة ذات العجلتين المربوطة بحصانين أو أربعة آلة حربية تقليدية معروفة حول شرقي البحر الأبيض المتوسط منذ منتصف القرن الرابع قبل الان، وقد استخدمها جل شعوب هذا الإقليم، والرومان بشكل مكثف، وكذلك الليبيون والكرامانت والجيتول، حيث تمرسوا على الخيول منذ نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ويشير اليها كل من هيرودوت، وديودور، واسترابون[1].

2- اسلاف البربر الملثمين:

يعتقد "**ريموند موني**" أنّ اللوبيين البربر وهم احفاد الصنهاجيين الذين كانوا حاضرين في هذه المنطقة منذ القدم، وأشهر أولئك الليبيين هم شعب الكارامنت "الجرمنت" وهم السكان الاقدمون لفزان وكانت لهم على ما يبدو دولة تسيطر على الطرق التجارية الصحراوية وكانت عاصمتهم جرمة، وهيرودوت هو اول من أشار إليهم في الكتاب الرابع "ويعيش هنا قوم كثيرو العدد يدعون الكرامانت. وعند الكرامانت توجد الثيران، ويمضي هؤلاء الكرامانت في عرباتهم ذات الخيول الأربعة.."

وقد كان الكرامانت الشعب الوحيد الذ يستطيع اختراق الصحراء جنوباً قصد التبادل التجاري، أو خلال مطاردتهم للحيوانات مثل الفيلة والنعام، ويرجح البعض أنّ التوارك الموجودين حالياً بالصحراء هم نسل أولئك الكرامانت الاقدمين ثم انفصل الفرس عن العربة واصبح مطية للجيتول و الكرامانت في غزوهم للصجراء ذلك الغزو الذي توطد واستقر مع الميلاد بفضل الجمل، وهكذا يحدد هذا الاطار التاريخي بدقة أصل العربات الصحراوية إذ أدخلها البربر الأوائل الى الصحراء أثناء توغلهم جنوباً، وحضور البربر في الصحراء يصادف الالف الثالث قبل الان لسبب بسيط هو انعدام الخيل فيها قبل ذلك التاريخ وقحطها بعده بحيث لم يعد للفرس بها مقام.

[1] -نفسه، ص21.

لقد نزل أصحاب العربات على رعاة الابقار قبل ان يرغم المناخ هؤلاء الرعاة على النزوح صوب أطراف الصحراء، وبقي أصحاب العربات سادة الميدان واثبتوا وجودهم بواسطة نقش العربات على جدران الكهوف والصخور بينما اخذ عنصر جديد في الظهور وهو كتابة "تيفناغ"، وتبقى العلاقة بين الثقافتين مجهولة، فقد كانت العربات رمزاً للشأن لدى سادة البربر القدامى، ولم تلعب دوراً كبيراً في التجارة نظرا لضعفها التقني أمام المناطق الصعبة العبور.وقد وصف الجرمنتيون أنفسهم أنهم سود نوعا ما أو حتى شديدو السواد، ف حين يوصفون بأنهم قليلو السواد عند بطليموس.

وحسب هيرودوت كان يسكن وسط الصحراء وشمالها عناصر بيضاء طوال القامة لهم ملامح البحر المتوسط تتصف جمجمتهم بالضخامة، والوجه طويل نوعا ما وضيق الأطراف نحيلة" وهي الصفات المورفولوجية ذاتها للطوارق المحدثين، وكان الحراطين في الواحات الصحراوية رغم وجود خلاسيين بينهم، مجموعة منحدرة من الاثيوبيين المقيمين، كما جاء في هيرودوت وكانوا مستعبدين للجرمانتيين الأغنياء[1].

3-اليهود:

يحتمل ان تكون أولى الهجرات اليهودية التي وصلت الى شمال افريقيا أواخر القرن السادس قبل الميلاد الى سيرينايكا (برقة خاليا) حيث يحتمل انها ذابت في محيط من البربر الذين اعتنقوا اليهودية، وفي سنة 115م، اندلعت ثورة يهودية كبيرة ضد الحكم الروماني في سيرينايكا، وبعد ان اخمدت الثورة هرب الكثير من اليهود نحو الغرب ومن المحتمل ان البعض منهم بقي في الواحات شمالي الصحراء[2].

وقد ذكر الجغرافيون العرب وجود اليهود في بعض الواحات الصحراوية القديمة مثل مدينة بانكلابين "آزوكي"، وذكر الرحالة البرتغالي فرناندش (1506-1507م) وجود جاليات من التجار اليهود الأثرياء في مدينة ولاتة في القرن السادس عشر، وذكر البرتلي(ت1219هـ) في فتح الشكور وجود جاليات من التجار اليهود الأثرياء في مدينة ولاتة يعيشون في خفارة رؤساء المدينة، وتذكر بعض الروايات المحلية وجود "ملّاح" حي يهودي في مدينة وادان الحالية.

---

[1] -حماه الله ولد السالم: موريتانيا العناصر الأساسية، المرجع السابق، ص ص24-25.

[2] -حماه الله ولد السالم: تاريخ بلاد شنكيطي"موريتانيا"، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2010م، ص24.

إلّا ان اليهود كانوا دوما من سكان الحضر ولم يكونوا رحلا ولذلك كان وجودهم في الصحراء وجودا تجاريا مؤقتاً غير ان قبائل البافور (البافار في النصوص القديمة) كانت يهودية الديانة وقد سيطرت على الصحراء. و**البافور** قبائل من المور (اسلاف صنهاجة او إخوانهم) الذين قاتلوا الرومان ولا تزال أصولهم الدقيقة غامضة الى اليوم.

لا يوجد ذكر للبافور في المصادر العربية الوسيطة، وهم على ما يبدو سكان اسطوريون تعزى اليهم الروايات الشائعة حول تأسيس حواضر آدرار، تينيكي، آبير، شنكيطي، وادان، وإعمار هذه الحواضر قبل انتشار الإسلام، وقد حاول الباحث البولوني ت.ليفسكس البحث في أصول البافور فارجعهم الى احدى القبائل اللوبية بموريتانيا القيصرية تدعى بافار اضطلعت في القرن الثاني للميلاد بادوار هامة في شمال افريقيا[1].

والرواية المتداولة في موريتانيا حتى اليوم، تقول أن البافور شعب وثني يهودي مسيحي؟ غامض كان يسيطر على الجبل (آدرار) شمال غرب موريتانيا ويحمي مساكنه وقراه بكلاب مدربة شرسة وضخمة ويتحصن في عاصمته آزوكي، ثم هاجمته فيالق المرابطين بقيادة ابي بكر بن عمر اللمتوني ت468هـ، وفتحت عاصمته وشردت سكانها واخضعت مقاتليهم، وتشير الرواية ايضاً، الى ان من بقية البافور مجموعة (تيزكة) وهي اليوم عشيرة قليلة في آدرار، وربما مجموعات أخرى تحت أسماء مختلفة، لكن الروايات لا تميز بين البافور الأصليين المؤسسين للمملكة وبين من سيقطنون في جبل بافور في عصور مختلفة، ولا علاقة لهم بالبافور الأصليين.

وتبقى العلاقة بين البافور واليهود هي علاقة دينية فحسب، لان البافور كانوا يدينون باليهودية بينما كان خصومهم الاولون يدينون بالنصرانية ويخضعون للروم، لكن ذلك لم يمنع وجود عشرات الاسر اليهودية بين سكان المنطقة[2].

[1] –كامبس: تاريخ افريقيا العام، ج1

[2] –حماه الله ولد السالم: تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي، ط1 دار الكتب العلمية، بيروت، 2017م، ص54.

الدرس الرابع: من دولة المرابطين الى بني حسان

(الفترة الغامضة من التاريخ الموريتاني)

مدخل تاريخي:

لم تعرف الصحراء التي تشغلها موريتانيا اليوم حكما سياسيا جامعا في المراحل التي سبقت السيطرة الفرنسية في مطبع القرن العشرين، وظل السكان يعيشون حياة البداوة والترحال بعيدا عن السلطة السياسية والحكومات المركزية في إطار بنى اجتماعية متحركة تشكل الاسرة وحدتها الصغيرة، والقبيلة اطارها الاجتماعي العام وتحتكم الى الأعراف العشائرية والتقاليد المحلية والدين الإسلامي في مراحل لاحقة[1].

ولئن كنا في موقع الحسم في نفي أي سلطة مركزية تجمع الشتات القبلي عبر تاريخه الطويل، إلا أننا في مقابل ذلك نكون أكثر حذرا حين نتحدث عن تلك القبائل فتاريخهم القديم عبارة عن سلسلة من التشكلات والاستحالات فما ان تظهر قبيلة في وقت معين حتى تختفي أخرى لتصير طرفا طارئا في عداد قبيلة قائمة او ناشئة وما ذلك الا بفعل عوامل الاستيعاب والنبذ المضطردة[2].

1-قيام الامارات اللمتونية:700-900هـ/13-14م

قبل وصول الهجرة الحسانية كانت الصحراء مسرحا لتوازنات بشرية بين كتل صنهاجية مختلفة، ويرى مختار بن حامد ان الوضع السياسي في الصحراء لم يكن واضحا منذ افول نجم المرابطين في القرن الهجري السادس، ولكنه يفترض وجود نوع من التنظيم السياسي، ولو في صورة بسيطة. وانه يمكن القول بانه كان هنالك (وخاصة منذ أواخر القرن الهجري السابع) نوع من توزيع السلطات بين قبائل صنهاجة في النواحي المختلفة من الصحراء.

---

[1] -احمد بن سيد: ظاهرة الدولة في المجتمع الموريتاني800-1380هـ، رسالة دبلوم عال، منشورات جامعة محمد الخامس، 1979، ص16.

[2] -محمد المختار: الرحيل الى الدولة، دراسة في تاريخ المجتمع والسلطة في موريتانيا(1961-1978م)، ط1 المكتبة الوطنية بالجمهورية الإسلامية الموريتانية، 2020م، ص44.

ففي إقليم القبلة (جنوب غرب موريتانيا) كانت السيطرة بيد قبيلة انيرزيك، وفي بلاد تكانت وبلاد الرقيبة (شرقي البلاد) كانت السيطرة لقبيلة الانباط، أمّا في بلاد آدرار (الشمال الغربي) فكانت السلطة بيد قبيلة إديشلي، بينما كان الحكم عند قبائل ابدوكل في بلاد الزمور (الشمال)

غير ان هذا التقسيم جاء بعضه نتاجا لانهيار بعض تلك الامارات، كما انه لم يرد فيه ذكر لامارة "بيجكة" بيلكات وهي امارة لمتونية في بلاد البراكنة وما حولها من الجنوب الموريتاني .

أ–إمارة ابدوكل "لمتونة" (دولة المرابطين الصغرى) ق 07–09هـ:

هذه الامارة من اهم الكيانات السياسية التي بقيت بعد دولة "المحلة" المرابطية، وقد قامت في تاريخ تقريبي هو أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري لاسيما بعد تلاشي قوة بني غانية حدود 630–700هـ، على ايدي اسرة لمتونية لا نعرف عنها الكثير، لكنها قطعا ذات صلة ببني غانية، لكن نواة ابدوكل كانت لمتونية قطعا بدليل ان بعض فروعهم المتبقية مثل ايدكوجي يوصفون بانهم من المرابطين [1].مما يسمح من مستوى آخر، باعتبار ابدوكل هي وريثة مرابطي الصحراء، رغم وجود رئاسات لمتونية مرابطية متفرقة في الانباط وايدوعيش.

وابدوكل كانت تجمعا لعدة قبائل ليست بالضرورة منحدرة من ارومة واحدة رغم وجود نواة لمتونية قوية نشات حولها الامارة. لقد كانت امارة ابدوكل هي التجمع الذي نتج عن جيش بني غانية، بدليل ان اسم ابْدُوكَلْ وينطق احياناً " ابدوكّلْ بتشديد الدال لفظ صنهاجي يعني التجمع، التداخل التحالف...أو هذا بأجمعه. وأصل اللفظ معروف في لغات البربر: تيدّوكلا، الصحبة والرفقة وهي الصفة الملازمة لجيش ابن غانية الذي جمع بقية المرابطين من مسوفة ولمتونة وفئات من الترك والارمن والقوط مع اخلاط من عرب هلال وسليم وجماعة من العلماء والاعيان من العرب والبربر.

ب–إدغموسة(أولاد موحمد): الرواية المتداولة عن أولاد موحمد انهم من ذرية، ويبدو لنا ان تكوين اتحادية أولاد موحمد كان حول رجل اسمه موسى (ابدوكلي) قدم الى أولاد امبارك بعد وصولهم الى الحوض، واجتمعت حوله البطون ذات الأصل البدوكلي، والتي ظلت تعرف باسم (ادغموسة) ولا تنسب الرواية المحمدية اليهم سوى أولاد تيكي. ثم ارتبط الجميع بعد شتاتهم بمجموعات عربية حسانية او معرّبة.

[1] –المختار بن حامد: الموسوعة، مرجع سابق، ص63.

المهم في الرواية الجديدة هي أنّ إدغموسة الاسم القديم، هو اسم القبيلة القوية التي كانت من صميم ابدوكل، ثم هاجرت بعد نهاية الحرب الى الحوض حيث تشكلت الاتحادية على النحو الحالي.

ج–لادم (لمطه): تدل روايتهم واسمهم المحرف عن لمطة (لمدا: لامد: لادم) على وجود قديم لقبائل لمطة في تجمع إبدوكل، ينتشرون على نطاق واسع بين قبائل الشمال والشرق في الحوض وازواد وغيره، ما يدل على شتات بشري تم بعد حرب ضروس. ويذهب بول مارتي في حديثه عن قبائل الحوض الى ان لادم واسلافهم لمطة هم اقدم المجموعات الصنهاجية انتشارا في غرب الصحراء الكبرى[1].

يضم لادم اليوم ثلاثة بطون الجواولة والمحيردات والنعاج، وينحدر منها ثلاثة رجال يجمعهم جدّمظان بن لادم، ويعرفون بلادم البيض(تمظانت) بينما يعرف فرعهم الاخر اهل الطالب المصطفى اللادمي بلادم الكحل وهم في عداد أولاد موحمد بينما يستقل تمظانت بأنفسهم في غرب الحوض، وتدل كتابات المغرب عن ثورة بني غانية، على وجود قوي لقبيلة لمطة في حدود منتصف القرن السابع، في ثورات الجنوب ضد الموحدين[2].

2–وثيقة نسب أمهات الشيخ سيدي احمد البكاء الكنتي:

وجد نص مجتزأ من ورقات قديمة للشيخ سيدي احمد البكاء الكنتي ت920هـ/1514م، يذكر فيها نسبه ونسب اسلافه من امهاتهم من صنهاجة مما يكشف عن خارطة بشرية بالغة الأهمية، اغلبها قبائل انتظمت حول أبدوكل ثم تفرقت بعد حرب شرّبُبّا الكبرى بين ابدوكل واولاد الناصر[3].

ويكشف نص احمد البكاي عن خارطة بشرية وجغرافية مفهومة تشمل القبائل اللمتونية والمسوفية المستقرة في المدن والبوادي في الشمال والشمال الغربي، وكان مجال إمارة ابدوكل بشمل ما بين الساقية الحمراء

[1] –بول مارتي: قبائل الحوض والساحل، تعريب محمد محمود ودادي، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية، 2001، ص73.

[2] – حماه الله ولد السالم: تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي، مرجع سابق، ص172.

[3] –ينظر الملحق رقم 01.

شمالا الى تخوم آدرار الحالي المتاخم للمجال الخاضع للممالك السودانية، أي مملكة مالي[1] ثم السونغاي[2] فيما بعد.

وكانت موارد ابدوكل تعتمد على ضرائب القوافل وعلى المالح كمملحة الجل، والمغارم المفروضة على سكان المدن.

ظل ابدوكل يراقبون الطريق التجاري الرابط بين وادي درعة وبلاد السودان حتى أواخر القرن الثامن الهجري حين بدأ يتدهور لصالح طريق توات–تمبكتو بفعل ظهور قبائل المعقل على أطراف البلاد وسيطرتهم على طريق تافيلالت –سوس مما ادّى الى تحول التجار شيئا فشيئا من طريق سوس– ولاتة إلى طريق توات– تمبكتو.

وبالرغم من ان بني هلال وبني سليم شكلوا أكبر القبائل المهاجرة إلا انها ضمن قبائل هوازنية أخرى كشجم وسلول ودهمان والمنتفق وربيعة وسعد وكعب وكلاب وقبائل قيسية كفزارة واشجع وعبس وعدوان وفهم وقبائل مضرية كهذيل وقريش وتميم وعنزة، بل وقحطانية كجذام وكندة ومذحج.

اما هجرتهم من الصعيد المصري الى الشمال الافريقي، فترجع الى تأثير الأوضاع الاقتصادية في مصر في عهد المستنصر(427-487هـ) والتي شهدت مجاعات واوبئة وازمات اقتصادية ماحقة، وسيتميز المعقل عن الهلاليين تدريجياً، منحدرين نحو الجنوب الغربي الجزائري تبعاً لخلوه من قبائل زناتة القوية التي كانت تحكمه ويصف المستشرق ريمون فيرون بني معقل ونظامهم الاجتماعي في تلك النواحي بانهم كانوا "...قبائل من جنوب العرب بالنسب وهي القبائل التي ترسل شعورها طويلا دائما، كما ان ملابسهم زرقاء بل عن بعض اجسامهم تصطبغ بلون العظم الأزرق ولم يأتوا كغزاة مثل عرب بني هلال وبني سليم ولكن أتوا في قوافل، وقد كثر عددهم من الثالث عشر الميلادي في واحات توات وجدارة، وفي القرن الرابع عشر الميلادي اصبحوا مصادر الاضطراب فاقضوا مضاجع سلاطين بني مرين في مراكش، وانتهى بهم المطاف الى الاستقرار في كل

---

[1]- مملكة مالي(1250-1493م) أسسها شعب الماندينغو من بين أوائل الشعوب في غرب افريقيا التي اعتنقت الإسلام، ويتفق الباحثون على ان مملكة مالي في أيام عزها كانت من اكبر الامبراطوريات اتساعاً في غرب افريقيا، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يقدرون طولها بمسير أربعة اشهر من الغرب الى الشرق وعرضها بمسيرة ثلاثة اشهر. ينظر عبالقادر زبادية: الحضارة العربية والتاثير الأوروبي في افريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989م، ص16.

[2]–مملكة سنغاي، سنغاي نسبة الى قبيلة كانت تسكن حول النيجر في حدود الغابات الاستوائية، تأسست دولة سنغاي في القرن السابع الميلادي وظلت في توسع حتى القرن السادس عشر الميلادي، كانت عاصمتها في غاو، ومن اشهر مدنها تمبكتو . ينظر زبادية، المرجع السابق، ص20.

جنوب مراكش، فقد وجدوا ظروفا تشبه الظروف السائدة في بلاد العرب، من مراعٍ شاسعة تحدها شمالا أراضٍ يملكها المستقرون ولكن لا توجد بها واحات، وقد كان يتجول فيها الرعاة من الامازيغ، ولذلك حين طرد المرينيون في مراكش المعقل وتسلل هؤلاء الى الصحراء وهناك وضعوا أسس نظام اجتماعي جديد يشبه ما كان لديهم في بلاد العرب"[1].

3-دخول بني حسان (المعقل) الى الصحراء بين 605هـ-786هـ:

يعد بن خلدون من أوثق المؤرخين عن اخبار عرب المعقل، ومجالاتهم وايامهم مع زناتة وخلفائهم في المغرب. وقد عقد في كتابه (العبر) فصلاً طويلا عن هؤلاء ومنه نورد نصاً بارزاً يقول فيه ".. وفي اخريات أيام المرينيين ولا سيما بين 656هـ و705هـ تغلغل بنو حسان جنوباً نحو جنوب المغرب تحت ضغط حملات الجيوش المرينية، ودخلوا في حلف امير جزولة ثم تغلبوا عليه، وسيطروا على ما في بلاده، وليصبح الطريق سالكا أمامهم نحو الصحراء. تغلغلت القبائل الحسانية نحو إقليم سوس، إبان ضعف الدولة، وظهور الثوار على أطراف البلاد، كما هو حال ثورة علي بن يحي الزكندري والتي أفضت إلى تأسيس إمارة مستقلة امتدت من 650-734هـ/ 1252-1334م.

وفي سنة 734هـ/1334م وبإغراء من العرب قام أبو الحسن المريني بالهجوم على سوس فاستولى عليه، واضعاً بذلك النهاية لإمارة بني يدر. وقد واجه بنو حسان وبنو عمومتهم كارثة حقيقية سنة 758هـ بعد مقتل مشيختهم كلها على يدي عبد الرحمن بن علي بن يحي الزكندري، وقد أدى زحف القبائل الحسانية على تخوم الصحراء إلى تصدع نظام الطرق التجارية وانتقالها نحو الشرق (بين عقفة النيجر وافريقية عبر واحات توات).

واشتداد هذه الظاهرة في أواخر القرن الثامن (قرن 14م) هو ما لفت انتباه بن خلدون حيث لاحظ في اخريات أيامه ان الطريق الغربي المار من ناحية السوس الى ولاتن (ولاتة) قد أهمل لما صارت الأعراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق الى بلد السودان من أعلى تمنطيط (إقليم توات).

[1] -حماه الله ولد السالم: تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي، المرجع السابق، ص ص174-175.

وكان تحوّل مسالك التجارة نحو الشرق والضغط الحسّاني بداية انهيار امارة ابدوكل بفعل شيوع الصراع فيما بينها، ورجوعها الى نهب قوافل سكان المدن بعد ان كانت تحميها، وكان ذلك عهد عزلة الشيخ الكنتي عن سلطة اخواله الذين قاموا بنهب قوافل تينيكي ثم ينهب ابله هو شخصيا، رغم انه كان يتنقل بين الساقية الحمراء شمالا وبلاد الزمور وتيرس جنوباً، يرحل منفرداً مع تلامذته وله رعاة يعتنون بابله، هذا العامل الاقتصادي ادّى فيما يبدو الى تراجع مداخيل السلط الحاكمة في امارة ابدوكل التي كانت تسيطر على التخوم الشمالية للصحراء، وفاقم من ظاهرة بدأت تتسع وهي الاغارة على قوافل المدن التي كانت تحميها نفس الامارة، فضلا عن الافراط في المغارم المفروضة على معادن الملح.

واخذت الصراعات تشتد بين القوى البدوكلية، وكان ذلك بداية التدخل الخارجي من قبل قبائل بني حسّان وفي طليعتها عشائر أولاد الناصر القوية وقتها، في بداية مسلسل انهيار إمارة أبدوكل فيما عرف باسم حروب شربة

الدرس الخامس: حرب شربة الكبرى 8-9هـ/ 14-15م

توسع الصراع الحساني الصنهاجي (الإبْدوكلي) توسعا جغرافيا وبشريا وهو ما تجسد في تلك الحروب التي دارت بين الطرفين المتنازعين طيلة القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشر، الميلاديين والتي عرفت باسم حرب شربة الكبرى

1-أسباب الحرب:

رواية الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي ت1242هـ/1826م في كتابه الشهير الرسالة الغلاوية وهي تعتبر اهم رواية وأقدمها حول حرب أولاد الناصر ضد ابدوكل وسبب انحياز جده سيدي امحمد الكنتي ت 830-840هـ إليهم ضد اخواله اللمتونيين.

تتحدث الرسالة الغلاوية عن اجداد كنته في توات وتلمسان وغيرها ثم تصل الى الجد الذي انتقل نحو الصحراء وهو (سيد اعلي) وكان قطبا علامة مربياً قدوة، يهتدى بهديه ويرجع الى اشارته ورايه وكان يخرج الى المرابطين أيام دولتهم بالصحراء، وجيل حسان يأخذون عنه الاوراد ويستمدون منه الامداد، وذلك في دولة السلطان ابي فارس وكان مقلداً له لا يعمل الا وفق اشارته، فخرج الى الصحراء فتزوج بنت محمد ابن آلم بن كنت بن زم رئيس ابدوكل، واسمها أهو، فأولدها ابنه خاتمة السلف وعين اعيان الخلف، سيد امحمد الكنتي فنشأ في أخواله ابدوكل من صنهاجة، وقفل سيد اعلي الى توات وبها توفي رحمه الله فدفن الى جانب ابويه، بعزي وتخرج على يده أزيد من الف واصل.

ثم لم يزل سيد محمد الكنتي بأخواله حتى تدرب وحفظ القران ومهر في سائر الفنون، وكان مجاب الدعوة، لا يجاريه في مجاريه خلف وهو أغلي وزنا وأعلى محلاً دام يحيي ما قد أميت من الفضل وينفي فقراً ويطرد محلاً. ثم رجع الى الصحراء ما بين تيرس إلى الساقية الحمراء. واستوطنها بمن معه من تلامذته وجيرته محترماً مكرّماً معظما عند سائر دولة المرابطين من لمتونة وبني حسّان مقدا عليهم محكّما فيهم إلى ان جرى القضاء بأمر غاظه على اخواله أبْدوكل. وهم يومئذ المتغلبون على الصحراء ومن فيها الى أطراف السودان. فارتحل عنهم، مغاضبا لهم فورد عليه غزو من أولاد الناصر وقد بلغهم مغاضبته لاخواله فقال بعضهم لبعض : إن فاتتكم هذه الفرصة في لمتونة فحرام عليكم الظفر بهم بعدها. فقد غاظوا هذا الغوث واغضبوه، فاستضافوه

ليلتهم وطلبوا منه أن يعطيهم دولة لمتونة فقال: اعطيتكموها على شرط: أنكم متى بلغتم منهم الحد الذي تأمنون شوكتهم، رفعتم عنهم السيف وابقيتم عليهم عيشة لبني وبنيكم، فأعطوه عهدهم وميثاقهم على ذلك وقالوا كيف لنا بجموعهم المتكاثرة ومحالهم المتظاهرة.

فقال انما عليكم شن الغارات والاجهاز عليهم فاني دعوت الله عليهم بإذهاب الدولة وإيهان الصولة، فأجابني فيهم فانقلبوا الى اهاليهم، وتألب افناء أبناء حسان بمن انضاف إليهم فصبحوا لمتونة وهم غارون فانتدب لقتالهم من يليهم من الاحياء واشتغل من عداه بإشغالهم استهانة بشأنهم واستخفافا بصولتهم. فهزموا من يليهم لأول حملة، وركبوا ظهورهم مع من وراءهم ممن لم يستعد لحربهم فهزموهم هزمة لم تبق منهم على مجتمع، وأبقوا منهم البقايا المدعوة الآن باللحمة، التي ضرب بنو حسّان على رقابها المغارم ومن كان منهم زوايا أبقوه على ما كان عليه.

واجتمعت الجموع على سيد امحمد الكنتي بالصحراء، وتحكانت زمان ئذ بتينيكي، قصرهم المشيّد قبل حربهم فيه وفرقتهم منه كما هو مشهور مذكور

هذا النص يعرض بلغة سيدي محمد الكنتي الجزلة القوية بداية الصلة بين الأجداد الكنتيين المغاربيين والسلسلة التي ستبدأ بالابن النصف الصنهاجي سيد امحمد الكنتي وحياة الابن بين اخواله وسبب مؤجدته عليهم وتعبئته للقبائل الحسانية حديثة الوصول ضداً على القبائل اللمتونية في إمارة أبْدوكل ومسار الصراع ونهايته.

التواريخ الواردة في النص منسجمة من الوجهة التاريخية، وتزامن فترة ابي فارس(796-837هـ/1393-1434) وفترة وجود بني حسّان في الساقية الحمراء منذ سنوات(602هـ..685هـ، 705هـ) الذين صاروا ينتجعون الى تخومها الى أيام بن خلدون (ت808هـ) ووجود امارة ابدوكل قائمة في تلك الفترة وهي التي اسماها دولة المرابطين، وهي إشارة بالغة الأهمية الى استمرار التقليد المرابطي في تلك الامارة ولكونها وريثة المرابطين.

والظاهر ان سيد امحمد الكنتي عاش في النص الأخير من القرن الثامن والثلث الأول من القرن التاسع الهجري، وبذلك تكون تواريخ الحرب بين ابدوكل وبني حسان في حدود 820-840هـ كونها دامت اكثر من عشرين سنة بين كر وفر.

وحسب الرواية الغلاوية فان السبب الرئيسي للحرب كان امراً غاظ "الكنتي" من اخواله "لا تصرح الغلاوية بسبب الموجدة، ولا نعرف الأسباب التي منعت مؤلفها من ذلك الاستحضار..، وتقول الروايات المنقولة شفاهياً، إنّ سبب موجدة الكنتي على اخواله هو رفضهم شفاعته في رد المنهوبات التي يحصلون عليها من اغاراتهم على قوافل تلامذته أو غيرهم، بل بلغ الامر ببعض البدوكليين أنهم اساؤوا معاملة الشيخ سيد امحمد الكنتي شخصيا ورموا رحله وكان من نوع تاغشميت.

لكن هناك سببا دينيا آخر هو ان الشيخ الكنتي شدد النكير على اخواله بشأن معاملات تخالف الشرع الصحيح مثل استرقاق الاحرار، ولعل الرجل كان صاحب نزعة تاصيلية في تجمع يلتزم فقهاؤه فروع المذهب المالكي. والمهم ان اتساع الهوة بين الكنتي وابدوكل صادف تربص القبائل الحسانية بتلك الامارة التي كانت سدا امام انسياحهم جنوبا، قبل ان ينبثق التحالف بين الكنتي وأولاد الناصر.

2-مسار الحرب:

كان رافع راية الحرب هو سيد امحمد الكنتي، وثائر صائغ الاخبار اسمه أدد، أو أداد، وقد حزب هذا الأخير الجموع والاحلاف من القبائل الصنهاجية "اينرزيك" وغيرها التي كانت تعاني من هيمنة أبدوكل وبطشهم، وعبّأ الكنتي عشائر أولاد الناصر ومن معها من بني عمومتها من بني حسّان، وشكلت فتوى يعقوب الجكني وهو قاضي مدينة تينيكي بشرعية قتال أبدوكل، الفتيل الذي أشعل الحرب، وقد دعم هذه الفتوى الشيخ الكنتي بوثيقة ضمنها نص الفتوى السالفة وتسليمه لها. وقد حملت الوثيقة الصك المتضمن للفتوى المحارب الثائر ضد لمتونة ابدوكل.

وقد دوّن الفقيه المؤرخ بيه بن سليمان الناصري (يرحمه الله) رواية نادرة عن هذه الحرب وهي منقولة عن الشيخ سيدي المختار الكنتي بما نصه " أوّل من اتى هذه الديّار قبيلة لمتونة بعد سلب ملكهم في المغرب. فكانت الطائفة الحجازية(الجبلية الحجر) تقطن بآدرار وتكانت وآفطوط وأفله والركيبه، والأخرى الى جهة البحر وهي الطائفة التندغية، فتغلبوا على السوادين، وسبوا ذراريهم وأموالهم وجعلوا عليهم خراجاً يشبه الجزية كل عام، وذلك أنّ على كل بالغ منهم أربعين درهماً، فطابت لهم المعيشة واستقر ملكهم غاية القرار تسعين سنة، فأراد الله ان يخرج رجل منهم يقال له بُبّه، فأخذ كثيراً من العرب حلفاء عليهم وطائفة من لمتونة فحاربوهم خمساً وثلاثين سنة حتى ظفر بُبّه وقومه بهم، فركب وفدهم الى بُبّه وقومه يريدون الهدنة فوقع الصلح بينهم

على أنّ كل حر خارج من صلب لمتونة، ومن اشترك معهم حليفاً لهم لا يحمل سلاحاً أبدا، ويعطى خراجا معلوما لمن نصر بُبه) وهذه الرواية الثمينة عالية المصداقية تكشف عن حرب بين طرفين من صنهاجة الصحراء، وعن تدخل العنصر العربي وعن مسار الحرب.

بدأت الحرب في تاريخ قريب من نهاية القرن الثامن وبداية تاليه أو في العقود الأولى من التاسع، واستمرت أزيد من عشرين سنة بين كر وفر دون تغلب طرف على آخر، لكنها انتهت بهزيمة أبْدوكل بعد استنجاد خصومهم بجيش من بلاد السودان غير معروف تحديدا[1].

وقد تم إبرام صلح مؤداه تفكيك إمارة ابدوكل وإخضاع محاربيها للمغارم التي فرضتها القبائل المنتصرة من أولاد الناصر وانيرزيك، اما المجموعات والقبائل المختصة بالشان الديني والعلمي فقد تركت وشانها، وهو ما لخصه مؤلف الغلاوية قائلا: "فهزموهم هزمة لم تبق منهم على مجتمع وأبقوا منهم البقايا المدعوة الآن باللحمة (الاتباع) التي ضرب بنو حسّان على رقابها المغارم ومن كان منهم زوايا أبقوه على ما كان عليه" وإشارة المؤلف الى ان ذلك كان نتاج شروط فرضها سيد امحمد الكنتي على محاربي أولاد الناصر امر منطقي، بحكم سعي الكنتي الى انقاذ المجموعات التي تربطه بها مصاهرات وصلات علمية لأنه درس في عشائر من زوايا ابدوكل.

3-نتائج الحرب:

تشتت القبائل البدوكلية المحاربة ولم يبق منها من يحمل الاسم إلّا ابدوكل في مدينة ولاتة، ومنها خرجوا في سنة 1222هـ الى النعمة ومازالت بقيتهم هناك وايدكوجي وبطونهم: اهل اتفاغ موسى واهل محنض ...ومن ابدوكل عشائر وأسر لم تعد تحمل الاسم اهل تيكي-جيكي بجيم فارسية وهم ي عداد أولاد محمد في بلاد الحوض، واهل كنته في ايديشلي وغيرهم. وكان من نتائج هزيمة ابدوكل:

-فرض المغارم على المهزومين وحظر حمل السلاح عليهم، مع ترك الوظائف الدينية للزوايا، وسيحدث الامر نفسه في القرن 11هـ/17م بعد هزيمة الزوايا في حرب شر ببا الصغرى التي جرت في جنوب غرب موريتانيا

-سيطرة بني حسان على اتباع القبائل اللمتونية، أي على الفئات المنتجة منها، وفرض التخصص الفئوي على جماعات المتعلمين من الزوايا.

---

[1] -جلُّ هذه الاحداث ورد في نظم تاريخ الدولة اللمتونية لمؤلفه محمد امبارك اللمتوني، وهو نظم لتاليف والده محمد الكبير عن ذات الموضوع، ولم يتفطن الباحثون غالى ان محمد مبارك يتحدث عن حرب شربا الكبرى وليس عن تلك الصغرى المتاخرة زمانا والمحدودة مكانا، ينظر ولد السالم، تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي، المرجع السابق، ص189.

-التعرب اللغوي والنسبي والظاهر ان سيد امحمد الكنتي كان يتحدث العربية مع عشائر أولاد الناصر ومع غيرهم من الحسانيين رغم حذقه لغة اخواله.

وبعد هزيمة ابدوكل اضحى الطريق مفتوحا امام القبائل الحسانية نحو الشمال الشرقي والجنوب الغربي في المسار المعروف. واستمر الهجوم الحسّاني من قبل أولاد رزق رزك نحو الغرب والجنوب[1].

[1] -ولد السالم، تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي، المرجع السابق، ص 192.

الدرس السادس: التحولّات السياسية والبشرية في موريتانيا بعد حروب شربه

تمهيد

عرف التعايش القبلي في موريتانيا تغيرا جذريا على أثر حروب شرّبُبَه وهو ما نلمسه في تلك التحولات الداخلية والعلاقات الخارجية التي أسّسَت لبروز معالم جديدة احتكمت اليها تلك القبائل وتقبلتها كعقد سياسي واجتماعي يحكمها فما هي معالم ذلك العقد وما التحولات التي أحدثها بين تلك القبائل؟

خلال هذه الفترة منذ القرن السابع وحتى التاسع (13-15م) كانت البلاد متأثرة إضافة للوضع الداخلي بجوارها السياسي السوداني (مالي ثم سونغاي) وكانت قبائل مسوفة اهم القبائل الصنهاجية التي اهتمت بالتجارة واتصلت بتلك الكيانات السياسية.

1- في عهد مالي[1]:

تعد مملكة مالي في بلاد السودان ثاني الامبراطوريات الإسلامية تأسيساً بعد سقوط مملكة غانا[2] ، وقد شملت جزءً هاما من أراضي موريتانيا الحالية مثل ولاتة | التي كانت تعد ثاني اهم مدينة بعد تمبكتو في التجارة والحياة العلمية والدينية، وقد تأسست ولاتة في الأصل كملجأ للنخبة العربية والصنهاجية البيضاء، وقد كان عنصر التوارك، وهم من قبائل مسوفة، اهم عنصر مشكل لسكان مدينة ولاتة شأن ضرّتها تمبكتو، وأيضا أبرز تجارها وعلمائهما وحتى حكامهما في ظل الدول السودانية المتعاقبة.

وفي عهد المنسى موسى (1307-1322م) قام قائده "ساران مانديان" بحملات مهدت لسفر مولاه للحج حيث اخضع خلالها البدو الصحراويين من الطوارق وصنهاجة الذين كانوا ينزعون الى التمرد[3].

---

[1] -مالي، دولة شكلها شعب الماندينغو شملت مالي الحالية والسنغال الشرقي وشمالي غينيا وشمال كل من بوركينا(فولتا العليا) والبنين (الداهومي سابقا) وجنوب شرق موريتانيا قدر بعض المؤرخين طولها بمسير أربعة اشهر من الغرب الى الشرق وعرضها بمسير ثلاثة اشهر من الشمال الى الجنوب.ينظر عبدالقادر زبادية، الحضارة العربية والتاثير الأوروبي في افريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص16.

[2] -غانا، يرجح انها تأسست في القرن الثالث الميلادي وامتدت حتى القرن الثالث عشر الميلادي، واسم غانا في الأصل اسم لاحد ملوكها شملت في القديم جنوب موريتانيا وشرقي السنغال وجزء من مالي وغينيا فهي على غير غانا الحالية، ينظر عبدالقادر زبادية، المرجع السابق، ص 12.

[3] -جبريل ت.نياني، مالي والتوسع الثاني للماندينغ ، تاريخ افريقيا العام ، اليونسكو، باريس1988م، ج4، ص158.

وبعد تولي العرش المنسى سليمان (1336-1358م) وفي عهده كانت بعض المجالات تعرف انتشاراً لعناصر طوارقية ومسوفية، وخلال هذه المرحلة كان سلاطين مالي يولّون على المدن الصحراوية نواباً من أصل غير صنهاجي[1].

وعند وصول بن بطوطة الى ولاتة ذكر انه شاهد نائب مالك مالي على ولاتة يخاطب التجار " ووراءه كبراء مسوفة"[2]، ولم يذكر انهم كانوا يتولون اية وظيفة سياسية باستثناء خطة القضاء ذات الأهمية، وعندما أنشأ الإخوة آل المقري شركة للتجارة وامتد نشاطها الى مدينة ولاتة، تعرضت فيما تعرض من أملاك سكان المدينة، لنتائج زحف الجيش المالي، لكن الملك المالي ارجع للمقريين أموالهم، بل وفتح لهم أبواب بلادهم للمتاجرة فيها[3].

وتقدم أسئلة الفقيه اللمتوني الموجهة للسيوطي بتاريخ 898هـ لوحة كاملة عن الصحراء وحياتها الدينية والاجتماعية وتداخل الأعراف الزنجية والبربرية مع المرجعية الإسلامية.

2- في عهد السونغاي:

مع نهاية السيطرة المالية عليها أصبحت تمبكتو تعرف حضورا هاما للفقهاء الشناقطة من ذوي الأصول الصنهاجية، وقد احتكرت هذه الاسر خطط التدريس والافتاء والقضاء والامامة وبرزت ثلاث أسر مشهورة هي آل قيت، آل اندغ محمد، وآل الحاج.

وفي آخر عهد دولة مالي تصاعد نفوذ قبائل الطوارق من (ايمغشرن)، وسيطروا على تمبكتو، ونواحيها ونظموا غزوات متعددة جنوباً وغرباً، ماكان له أثر مباشر على المجال الموريتاني، سيتضح بعد قرن، في ظهور نواة قبيلة مشظوف، التي هي فرع مسلح من تلك القبيلة الطارقية المسوفية المؤسسة لمدينة تمبكتو ذاتها في القرن الخامس الهجري (11م).

اما دولة سونغاي فقد تركت لولاتة ونطاقها الموريتاني استقلالا ذاتيا كبيرا وظلت مدينة ولاتة ملجأ للثائرين على سياسة سني على وبعده الاسكيا محمد الكبير. وكانت هناك حملات تاديبية قليلة منها حملة

---

[1] -إبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، دراسات في التاريخ القومي الافريقي، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م، ص94.

[2] -بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، ط2 دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان 1992م، ص687.

[3] -ابن الخطيب، الإحاطة في اخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، ط2 الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة 1973، ص138.

الملك سني علي، والتي طارد فيها صنهاجة الصحراء يقول السعدي " وفتح بر وأرض صنهاجة نونو، وأميرهم يومئذ الملكة بيكن كاب، وفتح تنبكت والجبال كلها إلا دُم فامتنعت له"

وأخطر مشروع همّ به الملك سني على هو حفر قناة لنقل الماء من بلدة رأس الماء الى بيرو (ولاتة)، ولكن الاشغال توقفت بسبب وصول غزو قبائل الموسّي (موش)، ولكن كان هناك من الوجهة التقنية مشكل الرمال الواسعة بين المنطقتين بين المنطقتين[1]، ولو تم حفر تلك القناة لتغيرت الجغرافيا السياسية لشمال عقفة نهر النيجر تماما، ولتم اخضاع كلي للجنوب الموريتاني من الحوض شرقاً الى الترارزة غربا وتحكمت دولتا مالي والسونغاي في ساحل الأطلسي.

وقد تناولت الأقلام الافريقية منها خاصة مسألة مهاجمة سني علي لفقهاء تمبكتو وجلاء العديد منهم جراء تلك المعاملة القاسية، غير أنّ المؤرخ سينيكي مودي سيسيكو سؤكد ان أسباب صراع سني علي مع فقهاء تمبكتو كانت سياسية وايديولوجية، وبيان ذلك ان سني علي بحكم تربيت في بلده لام (سوكوتو) كان مسلما لم يحسن اسلامه حيث لم يهجر العبادات التقليدية لسونغاي[2]، ولذلك فانه بمجرد وفاة سني علي(898هـ/1492م) عاد الفقهاء من ولاتة الى تمبكتو من جديد.

وقد تم ذلك مع وصول الاسكيا محمد الى السلطة (1493-1534) مدشنا عهد الاساكي الذي برزت فيه الثقافة العربية الإسلامية في المدن الساحلية مثل ولاتة، تازخت، تمبكتو، ولا سيما الأخيرة قبل ان تنهار تلك الحضارة ومعالمها مع الحملة السعدية على دولة سونغاي.

ولذلك فاهم الاحداث الإقليمية التي برزت في بلاد الساحل وقتها مع ضعف تأثيرها المباشر على البلاد الموريتانية هو حدث قيام حملة المنصور السعدي على بلاد السودان، فقد كان غزو السعديين لسونغاي كارثة على بلاد عقفة النيجر لكنه صار برداً وسلاماً على البلاد الموريتانية التي وصلتها هجرة بشرية خصيبة غالبيتها من العلماء والتجار والاعيان، ما سيعزز من النشاط الثقافي والاقتصادي في المدن الصحراوية[3].

3- الغزو السعدي لدولة السونغاي (1000هـ/1591م):

[1] -بول مارتي، القبائل البيضانية في الحوض والساحل، تعريب محمد محمود ودادي، طرابلس2001م، ص220.

[2] -سيسوكو، السونغاي من القرن 12-16، تاريخ افريقيا العام، اليونيسكو، باريس1988م، ج4، ص204.

[3] -ولد السالم، تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي، المرجع السابق، ص208.

اهتم ملوك المغرب من السعديين من محمد الشيخ الى المنصور مبكراً بالمصالح الصحراوية وحاولوا مراراً الحصول على جزء من موارد الضرائب المتأتية منها ودخلوا في سبيل ذلك عدة مناورات سياسية وحربية، وكان الدافع الأقرب الى غزوات السعديين خاصة الأخيرة منهم 1591م هو البحث عن معادن ومصادر الذهب والتي تبين فيما بعد أنها أقرب الى الأسطورة منها الى الواقع[1].

والظاهر ان الحملة السعدية اخترقت غرب البلاد الموريتانية لم تؤد الى نتائج ملموسة بدليل أنها لم تبق في ذاكرة السكان المحليين اطلاقاً، امّا على سونغاي فقد أدت الى انهيار المجتمع الأهلي الذي كان قائما في المدن السودانية مثل تمبكتو وجني، وأنهت النهضة الفكرية في تلك الاصقاع وحملت الى البلاد الموريتانية المتاخمة لها المزيد من الهجرات والاضطرابات البشرية والسياسية. وهو ما أدّى أيضا الى انهيار الاجماع الإسلامي الذي اطّرته وقادته نخبة العلماء في تمبكتو ومدن السهل الصحراوي ولاتة وجني وتمبكتو.

وتدل الشواهد الإخبارية المتعلقة بنهاية القرن 16 الى أواسط القرن 17م على تدهور الأوضاع في شبه المجال الموريتاني الحالي بفعل المجاعات والاوبئة والنهب نتيجة لاضطراب قنوات التموين بفعل انهيار الكيانات السياسية المركزية أو تأزمها.

[1] –محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغرب، دار الرشيد، بغداد 1982م، ص165.

الدرس السابع: نشأة المدن والحواضر الموريتانية

سيجد الدارس والباحث في المجتمع الموريتاني خصوصا والمجتمعات الصحراوية عموماً نفسه مشدوداً الى تلك المدن والحواضر التي أقيمت في صحراء قاحلة وبعيدة تجعله يلمس تحدي الانسان للطبيعة وينبهر بتلك الأدوار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المختلفة التي اضطلعت بها تلك الحواضر.

1-اهم المدن الموريتانية في الفترة الحديثة :

أ-ولاتَة (ولاتا):

تأسست في القرن 02هـ/08م، وهي حاضرة عتيقة من كبريات حواضر الإسلام والثقافة العربية في غرب الصحراء وبلاد السودان تقع الى اقصى الجنوب الشرقي من موريتانيا، كان اسمها في القديم بيرُ وقد أطلقه عليها شعب السوننكه (البامبارا) وهو في لغتهم السودانية المدخل، حيث كانوا يقولون بيرُ بافهْ، أي مدخل المدينة، وإذا اضافوا المصر الى سكانه قالو بيرُ كو، أي سكان ولاتة.

أما الاسم الحالي (ولاتة) فهو النطق العربي الحسّاني للاسم الصنهاجي (ايولاتن) وكان أطلقه على المدينة بطن من مسوفة لعله أول من قطنها من البيض، ومعناه سفح الجبل في لغة الطوارق، وهي فرع من الصنهاجية.

التاريخ القديم لولاتة موغل في القدم لذلك فان الحقائق قليلة بشأنه، فبعض الروايات ترجع تأسيس المدينة الى بني إسرائيل قبل الإسلام أي القرنين 06 و07 للميلاد[1]، وخلال القرن الخامس (11م) سيطر المرابطون على غانا وأضحت مدينة ولاتة القرية الصغرى آنذاك خاضعة لنفوذهم.

وبعد سقوط غانا في ايدي الصوصو الوثنيين ورثت ولاتة الدور التاريخي لمدينة كومبي صالح عاصمة مملكة غانا حسبما تذكر الروايات، وبالرغم من أنّ تأسيس تمبكتو خلال هذا العهد قد جذب القوافل والمواد التجارية، إلّا أنّ ذلك كان متدرجاً ولم يكتمل إلّا في قرون.

[1] -Meunié (Jacque), Cités Anciennes de Mauritanie. Librairie. KLINCKSUECK. Paris, 1961, p72.

وخلال هذه الفترة ظل الدور التجاري الولاتي في تصاعد، مما جذب اليه التجار من كل حدب وصوب[1] كما هو شأن شركة "الاخوة المقري" في القرن الرابع عشر الميلادي والتي أسسها خمسة رجال من اسرة المقري الشهيرة وهذا في المدن الرئيسية ولاتة–سجلماسة–تلمسان، عبر عدة وكالات يراس كل منهم احداها مع مراقبة دقيقة للأسعار وتنسيق محكم لسير القوافل من خلال تأمينها وحفر الآبار في طريقها في مشاركة سياسية مع ملوك مالي في هذه الفترة، وخلال هذا العهد طغى الحضور المسوفي الطوارقي على المدينة مما جعلها تسمى "ايولاتن" (سفح الجبل) باللسان الصنهاجي لمدة طويلة نسبياً[2].

وفي نفس الفترة (753هـ/1352م) مرّ بها بن بطوطة في قافلة مغربية تقصد تمبكتو ويؤكد في وصفه للمدينة تبعيتها السياسية لمملكة مالي وكذا أهميتها التجارية لمحور فاس–ولاتة–تمبكتو[3].

تعرضت ولاتة لهجومات الطوارق 847هـ/1443م ولقبائل الموشي 885هـ/1480م قبل ان يستبسل سكان ولاتة في الدفاع عن مدينتهم وتخليصها من المغيرين المعتدين[4]. واستعادت المدينة بعد ذلك عافيتها ونشطت التجارة بها

أما في مطلع القرن 16م (حوالي 1505م تقريباً) فقد وصفها حسن الوزان بقوله "لا يوجد في هذه الناحية أي تنظيم متحضر، فلا حاشية، ولا قضاة، ويعيش القوم في بؤس شديد"[5].

ويبدو ان هذا العهد من تاريخ ولاتة هو الذي شهد قدوم سيد احمد البكاي الكنتي (ت920هـ/1514م) صحبة جمع من تلاميذه، ورد ذلك في سياق مناقبي عريض ذكرته المصادر الكنتية المختلفة، استقر بعده البكاي في ولاتة معلما ومربيا، ولكنه لم يلبث الا سنوات قليلة حيث توفي سنة 920هـ/1514م، بعد ان أرسى كما تقول الرواية، أول تقليد علمي عرفته المدينة، كما فرض الحجاب على نسائها، في إشارة ربما كانت تعني مسوّفة وعناصر الملثمين عموماً

---

[1] –إبراهيم احمد فال، التراث الثقافي والمعماري لمدينة ولاتة التاريخية، ط1، دار كنوز التراث، المملكة المغربية، 2021م، ص40.

[2] –حماه الله ولد السالم، تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي، المرجع السابق، ص254.

[3] –بن بطوطة، المرجع السابق، ص 687.

[4] –السعدي، المرجع السابق، ص69.

[5] –الوزان، وصف افريقيا، المرجع السابق، ج2، ص161–162.

ولكن رواية قبيلة المحاجيب تقول ان تأسيس المدينة يرجع الى القرن الخامس الهجري بعد وفاة ابي بكر بن عمر الذي لم يبن بعد مسجدا ولا مدينة " ثم قدم رجل يقال له يحي وهو جد المحاجيب، أرض ولاتة وبها يهود ففتحها بالحكمة الإلهية فأسلم أهلها"[1].

وفي النصف الأول من القرن 17م خضعت ولاتة لسيطرة العروسيين القادمة من غرب البلاد أوائل القرن، وانتشرت في بلاد الحوض فيما يبدو، وكانت الحملة العروسية بقيادة شنان العروسي وابنائه، وفرض على سكانها ضرائب باهظة لم ينقذهم منها الا تدخل أولاد يونس الذين هزموا شنان وقومه في معركة حاسمة، وقد لخص ذلك صاحب الحسوة البيسانية بقوله " وكانت أرض ولاتة دار أولاد يونس في القديم ولذلك كثر سكانها منهم ومن احلافهم وقتلوا عندها شنان ابن إبراهيم العروسي في سنة أربعين بعد الألف"[2]

وقد ذكر السعدي في القرن 17م أنّ تأسيس تينبكتو وازدهارها كقاعدة لبلاد السودان قد سلب ولاتة أدوارها وكانت عمارة تينبكتو خراباً لبيرو، وذكر فالاتين فرناندیز في مطلع القرن 10هـ/16م أنّ ولاته حاضرة كبيرة، إلّا أنّ الوصف الذي قدمه لها الحسن الوزان في نفس القرن لا ينبئ عن مظاهر تحضر كبيرة[3].

ب-آبير-شنقيط:

تعد آبير النواة الأصلية لشنقيط، وقد كانت عمارة شنقيط خراباً لآبير التي توجد اطلالها اليوم على بعد 3 كيلومترات شمالي شرق شنقيط، وسط واحات تحيط ببئر، ويتفق الباحثون انطلاقاً من الروايات المحلية المتواترة أنّ تأسيس ابير كان في سنة 160هـ/76-777م، وتربط المرويات الشفهية تأسيسه بعمليات القائد المرابطي أبي بكر بن عمر ضد البافور، وان اسلاف قبيلة إدوعلى قدموا من تابلبالت واعمروا آبير، وذكر دولاشابيل ان تاريخ قدومهم الى ابير كان سنة 304هـ/917م، وحسب الرواية الشفاهية التي يجمع عليها جل الباحثين فان تاريخ تأسيس شنقيط سنة 660هـ/61-1262م، وقد ورد أول ذكر لشنقيط ضمن حوليات البرتغاليين في مطلع القرن 10هـ/16م، ووصفتها بانها قرية صغيرة، ولم يذكرها الحسن الوزان الذي ذكر ودان في نفس القرن، وقد ذكر عبدالرحمن السعدي في القرن 11هـ/17م ان قاضي تينبكتو أيام حكم

---

[1] – ابن نبوحة التيشيتي، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، نقلا عن حماه الله ولد السالم، تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي، المرجع السابق، ص256.

[2] –صالح الناصري، الحسوة البيسانية في علم الانساب الحسانية، المعهد الموريتاني للبحث، نواقشوط 1998م، ص 53.

[3] –احمد مولود ولد ايده، الصحراء الكبرى مدن وقصور، دار المعرفة، الجزائر 2009م، ج1، ص137.

التوارك لهذه الحاضرة في حدود منتصف القرن 09هـ/15م صنهاجي اسمه محمد نض اصله من شنجيط: شنقيط وقد فوّض اليه التوارك الحكم وبنى جامع سيدي يحي بتينبكتو"[1].

وتعتبر هذه الإشارة لهذا المصدر السوداني اول ذكر لشنقيط ضمن المصادر المكتوبة باللغة العربية، ونجد أول إشارة لازدهار شنقيط التجاري لدى عبدالله بن الحاج إبراهيم الذي روى خروج قافلة تجارية ذات يوم من شنقيط تعدّ 32 الف بعير، مما يوحي بأهمية الحاضرة كميناء للتجارة الصحراوية في القرن 12هـ/18م، وهي الفترة التي منحت فيها شنقيط اسمها للبلد نظرا لانطلاق ركاب الحج منها الى مكة سنويا، وكذلك نتيجة للنهضة العلمية المتأخرة التي شهدتها بلاد شنقيط، وجعلت بعض علمائها يعتلون كراسي التدريس منذ نهاية القرن 12هـ/18م وعلى امتداد القرن 13هـ/19م بالمراكز العلمية الإسلامية العتيقة بالزيتونة، والأزهر مما منح شنقيط الحاضرة مكانة وادواراً مبالغا فيها أحيانا في المخيال البيضاني حسب ما ذكر المؤرخ احمد مولود ولد ايده[2].

ج–وادان:

تقع على بعد 100 كيلومتر تقريباً الى الشمال الشرقي من مدينة شنكيطي في ولاية ادرار من الشمال الموريتاني الحالي، أسسها رجال من قبيلة إيدو الحاج سنة 536هـ/1152م دار علم عريقة تعتبر مدرستها الفقهية، إلى جانب ولاتة أم المدارس العلمية في البلاد، وقد أضحت منذ القرن العاشر (16م) مركزا تجاريا نشطا على الطريق بين المغرب والسودان، ولاسيما في تصدير الملح، ويرى الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي أن الاسم الأصلي لوادان هو "أنوالان ومعناه بالبربرية ذو الملاحس التي يأوي اليها الوحش من سباخ اليطرون"[3]. اما الطالب احمد ولد طوير الجنة فقد ذكر في كتابه تاريخ ولد اطوير الجنة نقلا عن شيخه سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم ان مدلول هذه الكلمة هو واديان وادي علم ووادي تمر[4]

[1] –السعدي، تاريخ السودان، المرجع السابق، ص22–25.

[2] –احمد مولود ولد ايده، المرجع السابق، ص139.

[3] –محمد الخليفة الكنتي، الرسالة الغلاوية، المصدر السابق، ص133.

[4] –محمد الأمين ولد الكتاب، وادان احدى اقدم حواضر بلاد شنقيط، ط1 المكتبة الوطنية الموريتانية، 2020م، ص22.

وتعزو رواية تأسيس ودان الى ثلاثة رجال قادمين من الحج تأسيس هذه الحاضرة وهم الحاج عثمان الانصاري والحاج يعقوب القرشي والحاج على الصنهاجي[1]، بينما تعزو روايات أخرى نسبهم الى الامويين والى بني مخزوم، وترجع بعض الروايات انتساب الحجاج الثلاثة للقائد المرابطي يحي بن عمر، وتضيف بعض الروايات الى الحجاج الثلاثة حاجا رابعا، وتتضارب الآراء حول الجهة التي قدم منها الحجاج الثلاثة ما بين توات وأغمات.

وقد ورد اول ذكر مكتوب لودان سنة 850هـ/1447م ضمن رسالة تركها أحد تجار جنوة بتوات ويدعى أنطونيو مالفانت ثم تلاه ذكر لها في احدى حوليات البرتغاليين في منتصف القرن 09هـ/15م، وتوالى ذكرها في القرن 10هـ/16م، فقد ذكر الوزان انها قرية صغيرة في الصحراء[2]. ويؤكد ريموند موني أنّ ازدهار ودان كان بعد نهاية العصر الوسيط، ويرتبط باستغلال منجم ملح الجل، الذي يعتقد ان بداية استغلاله كانت في القرن 10هـ/16م[3].

د–تيشيت:

يرجح بعض الباحثين اعتمادا على المرويات الشفاهية السونينكية وجود قرية سودانية بتيشيت منذ القرن 02هـ/08م، ويذكر بيير اميلهات أنّ تيشيت كانت في الأصل قرية صغيرة للسونينكيين الوثنيين تدعى شتو غير بعيدة من موقع تيشيت الحالية، وحسب الرواية الشفاهية المتواترة، فإن تأسيس تيشيت كان سنة 544هـ/1154م، على يد الشريف الادريسي عبد المؤمن بن صالح والحاج عثمان الانصاري أو الأغماتي وكانا درسا معا على القاضي عياض المتوفي بمراكش سنة 544هـ/1149م.

ولم يذكر ابن بطوطة الذي زار ولاتة في القرن 08هـ/14م تيشيت، ويعتقد ريموند موني ان ازدهار هذه الحاضرة كان في نهاية القرن 09هـ/15م، وعلى مدى القرن 10هـ/16م، وذكر أنها مدينة صغيرة ثم توالى ذكرها المتقطع بنفس الصفات ضمن مؤلفات أوروبية[4] وسودانية. ويبدو أنّ ازدهار تيشيت ارتبط بموقعها كمحطة على مسالك القوافل الرابطة بين منجم ملح الجل شمال غربي آدرار موريتانيا، ومنطقة ضفاف نهر

---

[1] –ابن حامد(المختار)، حياة موريتانيا، الجزء الثقافي، تونس، 1990م، ص198.

[2] –الوزان، المصدر السابق، ج2، ص116.

[3] -MAUNY(R), Tableau géographique, op.cit, p484.

[4] –مرمول كاربخال، المصدر السابق، ص43.

النيجر جنوبا، وتستشف الأهمية التجارية المتأخرة لتيشيت من خلال ما ذكره عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت1233هـ/1818م) من خروج قافلة تجارية ذات يوم من شنقيط مكونة من 32 ألف بعير من بينهم 12 ألف جمل لأهل تيشيت[1].

هـ-تينيكي:

أسستها قبيلة تجكانت وتقع في منتصف الطريق بين شنقيط وودان وذكر صاحب كتاب الوسيط ان اطلال تينيكي الواقعة بين شنقيط وتنوشرت كانت من مدن آدرار المعتبرة فيما مضى قبل ان يهجرها سكانها على إثر حرب أهلية طاحنة دارت بها بين بعض بطون قبيلة تجكانت الآهلة لها، إلا انه لم يمدنا بتاريخ تأسيسها او خرابها، وحسب بعض الروايات الشفهية التي جمعها بيير بونت، فقد كانت قبيلة تجكانت تقطن في ابير قبل وصول قبيلة ادوعلي الى هذه الحاضرة، ويفترض الباحث ان انتقال تجكانت الى تينيكي واستقرارهم بها ربما يكون نتيجة لحصول صراعات حادة بين القبيلتين، ويذكر آمليهات ان تأسيس تينيكي كان في حدود 679هـ/1280م، وتتضارب آراء الباحثين حول خراب تينيكي مابين القرن 10هـ/16م أو سنة 1029هـ/1620م.

وقد تفرقت قبيلة تجكانت على إثر خراب تينيكي الى مجموعتين كبيرتين اتجهت الأولى جنوبا واسست تكبة في وقت لاحق، بينما اتجهت الثانية شمالا واسست تيندوف لاحقا.

وقد ذكر بيير بونت ان اسم تينيكي ورد مكتوبا ضمن حوليات توات سنة 793هـ/1391م قبل ذكره مع شنقيط وودان لدى البرتغاليين في مطلع القرن 10هـ/ 16م، وتعرف اطلال تينيكي محليا ب دويرات تينيكي، وقد ذكر ر. موني لاحقا ان آثار الطرق والممرات وخرائب البناءات بالإضافة الى أجزاء من اسوار الحاضرة مازالت ماثلة للعيان سنة (198م)[2].

[1] -احمد مولود ولد ايده، المرجع السابق، ص143.

[2] -MAUNY, op.cit,p74.

الدرس الثامن: البنية الاجتماعية في موريتانيا الحديثة

تمهيد:

تطرح بنية المجتمع الموريتاني كغيرها من المجتمعات الصحراوية إشكالات عويصة في تبيين وتفسير الأساس الذي بنيت عليه بين الاجتماعي والأنسابي والوظيفي وحاول المؤرخون الموريتانيون وفي مقدمتهم المؤلف الموسوعي المختار بن حامد حصر مكونات المجتمع الشنقيطي باعتماد معايير انتسابيه ووظيفية.

1-البنية الاجتماعية على أساس انسابي:

وزع بن حامد السكان باعتبار النسب الى صتهاجيين وقرشيين غير اشراف واشراف وانصاريين، واعتبر القبائل الحسانية المعقلية من مجموعة الاشراف، مادامت تتعلق بالنسب الجعفري الزينبي.

ويطرح التصنيف الانسابي مشاكل عةيصة اذ لاسبيل للتحقق من صحة الانساب التي تتشبث بها هذه المجموعة او تلك، ويتعلق المنتمون الى صنهاجة بالنسب الحميري، وهو انتساب معروف ناقشه أغلب نسابة المغرب بين مؤيد ومعارض، اما الطبقة الثانية من السكان فترفع أنسابها الى قريش عموما (بنو أمية، الفهريون...الخ) والشائع عند اغلب قبائل هذه المجموعة أن اجدادهم وصلوا مع ابي بكر بن عمر عند عودته الى الصحراء، وربما كان لهذا الانتماء القرشي علاقة بسيطرة العصبية القرشية التي رسخها نفوذ العباسيين والامويين بدولتيهم.

وتشكل الطبقة الأخيرة من مكونات المجتمع باعتبار تاريخ الوصول مجموعات وصلت في حدود القرن الثامن(14م) وما بعده، وتنتسب قبائل هذه المجموعة في الغالب الى البيت النبوي. وربما كان للإلحاح على النسب الشريف خلال هذه الفترة، علاقة بانتشار أيديولوجيا الشرف بدعم من الدولة المرينية لاعتبارات تتعلق بأزمة الشرعية التي عانت منها الدولة حسبما ابانت عنه أبحاث الأستاذ محمد القبلي[1].

ليس في الملاحظات السابقة حكم على الانساب الشنقيطية من حيث الصحة او البطلان، إلا اننا نعتقد ان هذا التدرج في الانتساب (من الحميرية الى القرشية الى الشرف) بشكل يساير التسلسل الزمني، قد

[1] -القبلي محمد، مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، مجلة كلية الاداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع3، مج4، 1984، ص65.

يكون معبراً عن تطور الأيديولوجيات العصبية في المغرب، منطلق اغلب المهاجرين الى بلاد شنقيط، ونعتقد بإمكان اعتبار الانتساب الى هذه العصبية او تلك مؤشر للتاريخ التقريبي لوصول المجموعة المعينة الى مستقرها الصحراوي الأخير.

2-البنية الاجتماعية على اعتبار وظيفي:

ينقسم المجتمع الشنقيطي طبقاً للمعيار الوظيفي الى ثلاث مجموعات تقليدية

أ-مجموعة محاربة: تحتكر -نظريا- حمل السلاح وتفرض بواسطته نفوذها السياسي على المجموعات الأخرى. وتعيش هذه المجموعة على عوائد الغارات التي تشنها على اعدائها والغرامات التي تفرضها على المجموعات المستضعفة الخاضعة لها. ويطلق على هذه المجموعة اصطلاحاً اسم العرب او حسان رغم انتماء بعض قبائلها الى أصول غير حسانية[1].

ب-مجموعة الزوايا: وتعرف بالطلبة ايضاً، ومن الناحية النظرية يتفرغ هؤلاء بحكم وظيفتهم لتعلم المعارف العربية الإسلامية وتعليمها والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما من الناحية العلمية فإن للزوايا بالإضافة الى الوظيفة الدينية أدوارا اقتصادية أساسية من تربية مواشي وحفر آبار وزراعة، والتجارة هي اهم نشاط اقتصادي تمارسه هذه المجموعة وتحتكره الى حد ما.[2]

ولا يعني هذا التصنيف الوصفي نفي العلم والمسالمة عن القبائل المحاربة ولا اثباتهما للقبائل الزاوية، فما كل حسان فرسان محاربون، ولا كل الزوايا صلحاء أولياء، بل إن الامر جزئي. وعلى الرغم من التكامل الظاهري في دور هاتين الفئتين القياديتين في المجتمع فانهما ظلتا على مر التاريخ الموريتاني الحديث والمعاصر تتنازعان السيادة على بقية الفئات التابعة طمعا في المكاسب المعنوية والمنافع المادية، وكانت الغلبة في أكثر الحالات للقبائل المحاربة[3].

ج-مجموعات الفئات التابعة:

---

[1] -عبد الودود ولد عبدالله، المرجع السابق، ص60.

[2] -عبد الودود ولد عبد الله، المرجع السابق، ص61.

[3] -محمد المختار، المرجع السابق، ص25.

ويضم قبائل ومجموعات وافرادا ممن انكسرت جيوشهم في معارك خاسرة، أو من الذين لا يأوون الى ركن شديد، أو القاصدين مضارب عشيرة أخرى (الدخيلة)، وأصحاب المهن والصنائع المعتمدين في معاشهم ومأمنهم على فئات غيرهم من علية القوم، ويمكن ان نصنف داخل هذه المجموعة الفئات التالية:

–فئة اللحمة: تتميز بعدم التجانس الاجتماعي ذلك انها ليست من قبيل واحد وقد ورد الحديث عنها بتسميات متعددة منها "المهاجرة" و"الاصحاب" و"التلاميذ" وهي صفات تضفي على موصوفها معاني التبعية، وإن كان يلمس في ظاهر لفظها نوع من المجاملة.

واللحمة في اشتقاقها اللغوي هي بطانة الثوب، وهو معنى له دلالته الواضحة في واقع هذه الفئة التي داهمها الخطر، من خصوم لا قبل لها بهم، او من عوز وضيق معيشة، فلجأت الى حماية غيرها من أهل الشوكة، مقابل خدمات تسديها لهم، من قبيل الرعي أو الزراعة وغيرها.

–فئة الصناع: وتعرف محليا ب "المعلمين" وهي من أكثر الفئات في المجتمع الموريتاني نشاطاً وحيوية كما يمتاز أفرادها بقدر عالٍ من المهارة والحذاقة[1].

ومع ان التقاليد المروية تحيك لهم روايات مثيرة، ولا تنصفهم في الغالب الاعم، إلاّ أننا نشاطر الشيخ باي بن سيد اعمر الكنتي في تفنيده لهذه الترهات حين يقول "وما ذكر عن الحدادين بديهي البطلان، إذ من المعروف انهم لا يرجعون الى نسب واحد وإنما جمعتهم الحرفة، فمنهم من هو شريف الأصل، ومن هو عربي محض، والظاهر من حال أكثرهم أنهم من السودان، ومنهم أئمة وافاضل وعوامهم كسائر العوام، بل هم خير من كثير.

وتكمن أهمية هذه الفئة في كونها هي لولب الحركة الاقتصادية، فهي التي تصنع كل متطلبات الاسرة الموريتانية التقليدية بدءً بالأقداح مرورا بالألواح وانتهاء بالسلاح، مما يمنحها مكانة متميزة في المجتمع.

–فئة ايكاون (المطربين): ساهمت هذه الفئة في حفظ التراث الثقافي والقيمي للمجتمع الموريتاني من خلال ادبها وفنها، وكانت تعتمد في معيشتها على القبائل المحاربة والاسر الاميرية غالبا، إذ تتغنى ببطولاتهم، وتخلد امجادهم وانتصاراتهم وكان منشأ هذه الفئة في مضارب إمارة أولاد مبارك التي تأسست في القرن الثامن عشر، والتي نالت قصب السبق في هذا المجال[2].

---

[1] –محمد يوسف مقلد، موريتانيا الحديثة او العرب البيض في افريقيا السوداء، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960م، ص46.

[2] –الناني ولد الحسين، إمارة أولاد امبارك في الحوض، رسالة غ م، كلية الاداب، جامعة نواكشوط، 1984، ص22.

أما في مضارب أغلب الزوايا فان هذه الفئة لم تكن محظوظة لان بعضهم يسفهون الفن من منظورهم الديني، وفي التراث الشعبي" إيكيو ماه صاحب الزاوي" على أن الامر لم يكن قاعدة عامة في كل المناطق الموريتانية، ففي بعض احياء زوايا الشرق الموريتاني مازالت الذاكرة الشعبية تتداول المطارحات والسجالات الموسيقية والأدبية بين كبار الفقهاء وأساطين الاسر الفنية.

–فئة الحراطين (العتقاء): يرجع البعض أصلها الى حراثة الأرض فكانوا حراثين ويضعهم البعض الاخر في المرتبة الثانية من حيث الحرية (حرطاني)، واشتقها البعض الآخر من الحرية الطارئة والتي تعبر عن ماضي العبودية وحاضر الحرية، وأيا يكن فإن الحرية التي يتمتع بها هؤلاء منقوصة بفعل محدودية الوسائل المتمتع بها، لا سيما إذا علمنا أن الفرد منهم يبقى أسير واقعه المؤسف، لأن انعتاقه من الرق لا يلازمه توفير وسائل المعيشة، مما يعني انه لن يكون أكثر من اجير في أحسن الحالات.

–فئة العبيد: وهي أكثر الفئات معاناة وأشدها بؤساً، تعاني من غبن اقتصادي، وظلم أخلاقي، حيث لا تحق لهم حرية التملك، ولا يتزوجون، إلّا برضى الأسياد، وتعود ملكية مولودهم الى سيد امه، وتشير بعض الدراسات التي تناولت هذه الفئة الى مستوى المعاناة التي تعرض لها هؤلاء قائلة "انهم كانوا يحملون البضاعة على ظهورهم الى مناطق بعيدة ضمن القافلة وعبر المسافات الشاسعة والمسالك الوعرة"، وتعد أصول الرقيق في موريتانيا الى التجارة الصحراوية، والحروب القبلية، حيث تمكن الموريتانيون من اقتناء الكثير منهم عن طريق مبادلتهم بالملح، أو أسرهم في الغارات.

3–العلاقة بين مختلف الفئات الاجتماعية:

على الرغم مما تثيره مسالة الاسترقاق في موريتانيا من إشكالات فقهية واحراجات أخلاقية، نظراً لان مصدر اغلب الرقيق يعود لحروب وغارات داخل كيانات سياسية مشمولة بأحكام دار السلام، إلا أن فئة الزوايا وهي القيمة على الدين والعبادة كانت تملك العبيد وتستغلهم محاولة إيجاد مسوغات شرعية لذلك، وهي وضعية حسمتها الدساتير من الجوانب القانونية ومازالت بحاجة الى تدابير اقتصادية ناجعة للقضاء على مخلفاتها[1].

[1] –محمد المختار، المرجع السابق، ص28.

وقد تساءل الباحثون عن أصول التقسيم الاجتماعي الثلاثي في بلاد شنقيط، هل يرجع الى ظروف قدوم حسان وما اسفرت عنه حروب شريبة؟ ام انه أقدم من ذلك كما يفهم من أسئلة اللمتوني للسيوطي، ومن بعض الروايات الشفوية التي تعتبر هذا التقسيم الثلاثي استمرارا لإجراء تنظيم اتخذه بوبكر بن عمر اللمتوني.

وتساءل الباحثون من جهة أخرى عن طبيعة الفئات التي ينبني عليها هذا التقسيم هل هي فئات قارة مغلقة، مثل الفئات المغلقة في الهند مثلاً؟ ام كان هناك إمكان لانتقال الفئات صعودا وهبوطا من مركز اجتماعي الى آخر على مدارج السلم الاجتماعي[1]؟

خلص بعض الباحثين الى ان هذا التقسيم الثلاثي لا يعبر عن واقع عيني بقدر ما يعبر عن تصور معين له وظيفة أيديولوجية، ويتأسس هذا الرأي على اعتبار المجموعتين (أ) و(ب) جناحين لمجموعة واحدة هي مجموعة السادة، أصحاب سلطتي السيف والقلم، وبناء على ذلك لا ينبغي ان نتحدث عن تقسيم ثلاثي انما هناك تقسيم ثنائي تتقابل فيه مجموعتان هما الارستقراطية بجناحيها العسكري والمدني (أ) و(ب) والمجموعة المستغلة (بفتح الغين) وتشمل الفئات المذكورة ضمن المجموعة (ج)

ولسنا في معرض الحسم في شأن هذا النقاش، إلا اننا نلاحظ ان العلاقة بين المحاربين والفئات التابعة وكذلك علاقة هذه الفئات مع الزوايا كانت على العموم علاقة استغلال مباشر مفروض بواسطة العنف المادي (الذي يمارسه المحاربون) أو الرمزي (الذي يمارسه الزوايا).

أما العلاقة بين الزوايا وأصحاب الشوكة فقد كانت أكثر تعقيدا، لأن المحارب يشعر بقوته المادية امام (المرابط) الذي يمثل، او ينبغي ان يمثل النموذج التقليدي لرجل الدين الأعزل. غير أن (الحساني) يشعر بشيء من الرهبة إزاء القوة الغيبية التي يملكها (المرابط) وهي قوة قابلة لان تتجسد في شكل انتقام يحل ب (الحساني) عندما ينتصر الله لعبده الضعيف فيبطش بمن ظلمه ويسمى هذا الانتقام الإلهي "التازُبَّة" ويدل الأصل الصنهاجي لهذه الكلمة على تجذر المفهوم في التقاليد المحلية القديمة.

وتلعب هذه التازبة أدوارا هامة في حفظ التوازن بين فئتي المحاربين والزوايا فالغالب عندما يلتقي هؤلاء لاسيما أصحاب القوافل مع المحاربين الباحثين عن النهب، ان تبدا بين الطرفين مفاوضات ومساومات يتم في نهايتها الوصول الى حل وسط فالمحاربون يخافون من التازبة، أو يتظاهرون بالخوف منها، والزوايا يعلمون أن وجودهم

[1] –عبدالودود ولد عبدالله، المرجع السابق، ص61.

في بلاد السيبة يفرض ان يكون في أموالهم حق معلوم لاصحاب الشوكة، ويتم التكييف القانوني لهذا الحق بتنزيله منزلة "المداراة"[1]

ولم يكن يحد من السيبة الشنقيطية إلا وجود المشيخات الذي سيتطور بعضها ليصبح إمارات في جو من الفوضى المنظمة قليلا او كثيرا، وهي الفوضى التي كانت سمة غالبة على مجمل الأوضاع السياسية في بلاد شنقيط.

[1] -عبدالودود ولد عبدالله، المرجع السابق، ص62-63.

الدرس التاسع: الحركة الثقافية والفكرية في موريتانيا

تمهيد:

ان الحديث عن الحياة الثقافية والفكرية في بلاد شنقيط يدفعنا للتساؤل أولا هل هناك ثقافة شنقيطية مستقلة يمكن الاحتكام اليها وفق معايير محددة تجعل من هذا الفضاء الصحراوي استثناء في منطقة الصحراء الكبرى بفضل تميزه واعتزازه بثقافته وهويته؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه من خلال محاور هذه المحاضرة.

1-البنية العامة للثقافة الشنقيطية:

أ-الثقافة الشنقيطية وسياقاتها:

-السياق السياسي:

نشأت الثقافة الشنقيطية في كنف حكام متغلبين ونفس الامر ينسحب على المغرب ومنطقة السودان الغربي، وفي مثل هذه الأنظمة يعاني الحاكم-ان قليلا او كثيرا- إحساسا صامتا بنقص في الشرعية وبذلك يسعى بتعويض هذا النقص بتقديم البيعة ولو بصورة شكلية في الغالب، كما يسعى هؤلاء الحكام الى تقريب الفقهاء وتعظيمهم بوصفهم المصدر المحلي للشرعية والمشروعية، ولا شك ان تعظيم الفقهاء واتخاذهم وسيلة إلى الله انما يعود -اغلب الأحيان- الى دوافع ايمانية صادقة. لكن ما تذكره المصادر عن حظوة الفقهاء عند اباطرة غانا الوثنيين، يدفعها الى البحث عن مدى تأثر هذه العلاقة بدوافع أخرى منها العوامل الاقتصادية.

-السياق الاقتصادي:

ان العلاقة الارتباطية بين انتشار الثقافة العربية الإسلامية وازدهار التجارة العابرة للصحراء في منطقة الغرب الافريقي، قد أصبحت من المسلمات، فالثقافة العربية الإسلامية كانت الاطار الفكري لازدهار هذه التجارة، ولا يعود ذلك الى مجرد الترابط بين انتشار الإسلام وازدياد التلاحم في الصلات بين غربي القارة وشمالها، بل يعود بالأساس الى الطفرة التي نشأت عن الانتقال من مستوى الاقتصاد الشفوي الى طور الاقتصاد الكتابي فمن طريق انتشار الثقافة الكتابية أصبح بالإمكان التوسع في الصفقات التجارية ولم تعد هذه الصفقات رهينة في استمرارها بقوة ذاكرة الشهود ودرجة نزاهتهم وطول أعمارهم وغير ذلك من العوامل الذاتية. بل أصبحت هناك شروط موضوعية للتعامل إطارها الوثيقة المكتوبة طبقا للشروط المأمور بها شرعا.

وكان التعامل يتم في الغالب بالمقايضة، مما يطرح مشاكل جمة حول آجال وأماكن تسديد الديون نظراً لاختلاف قيم البضائع من موسم لموسم ومن مكان لآخر، هذا فضلا عن مشاكل الاختلاف في تفسير العقود وغير ذلك. وكان المعول على الفقهاء للسهر على سلامة كل هذه العمليات وحل كل الإشكالات.

وبالجملة فقد كان الترابط بين فئتي التجار والفقهاء قويا الى حد كبير ومع ذلك فالملاحظ ان هناك تمايز واضح بين المجموعتين كما يفهم من رواية بن بطوطة ومن كتب التاريخ السودانية فقد كانت الاسر العلمية في مدينتي تنبكتو و لاته –على الأقل– متفرغة للدراسة والخطط الدينية من امامة وقضاء وخطابة، غير ان العلاقة بين المجموعتين كانت تزداد متانة مع مرور الأيام، مما سيؤثر على تطور المؤسسات الثقافية[1].

–السياق المؤسسي:

كان المسجد في المدينة اهم مؤسسة تعليمية، وكان الامام يترأس المجالس التي تعقد بالمسجد حسب جدول محدد لقراءة الحزب وسرد كتابي صحيح البخاري والشفاء وفي بعض الأحيان يوجد الى جانب الامام سارد يقرأ بصوت جهوري منغم في حين يتولى الامام او غيره من كبار العلماء مهمة الشرح. وكانت المساجد مفتوحة لكل المتعلمين.

اما المؤسسة الأخرى وهي الأكثر انتشارا فقد كانت تتمثل في " المكتب" ويتلقى الأطفال في هذه المؤسسة مبادئ القراءة والكتابة مقابل اجر محدد، وهدايا يتلقاها شيخ المكتب كل اربعاء. ويبدو ان هذه المؤسسة كانت تسمى "المحضرة" قبل ان تتحول دلالة هذا المصطلح الى ظروف أخرى سنتعرض اليها لاحقاً. وكانت منازل العلماء بمثابة معاهد للدراسات المعمقة وعلى العكس من درس المسجد الذي كان مفتوحا، فإن دروس المنزل كانت تقدم لخاصة طلبة الشيخ، لا سيما من وصلوا مرحلة "الملازمة". ويكون الطالب الملازم في الغالب قد اكمل تعليمه واصبح مكلفا بتقديم الدروس نيابة عن الشيخ، وهو يلازم الشيخ في حياته العامة، فيحضر مجالس القضاء، ويستمع الى ما يدور في مجالس العلماء، وفي هذه المرحلة الانتقالية يتعرف الطالب الذي سيصبح في عداد الفقهاء على من سيكونون زملاءه عندما يحصل على الاجازة من شيخه.

وكانت الحواضر العلمية في المغرب الأقصى مركز جذب أساسي للشناقطة كما يظهر من تردد أسماء المسندين المغاربة من أمثال عبدالرحمن ابن القاضي، واحمد العطار، واحمد الجرسيفي، واحمد بن يعقوب الولالي

[1] –عبدالودود ولد عبدالله، المرجع السابق، ص71–72.

[1]، وكان لبعض الشيوخ المغاربة تأثير خاص اجتذب كثيرا من الشناقطة، ولعلّ للبعد الصوفي أو الموقع الجغرافي او هما معاً، تأثير في ذلك. ومن هؤلاء محمد بن ناصر واحمد بن محمد بن ناصر الدرعيان، واحمد اللبيب اللمطي السجلماسي، ومحمد بن محمد بن ابي بكر الدلائي، وقد ازداد الاقبال على الاسانيد المغربية لا سيما خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

إضافة الى بلاد المغرب استقى الشناقطة علومهم من مصر وبلاد الحجاز ومن كل هذه الروافد وبالتفاعل مع السياقات المحلية، تشكل اجماع ثقافي استمر حتى منتصف القرن الحادي عشر (17م) حين عصفت بالحياة الثقافية تيارات فكرية متناقضة[2].

2-الثقافة الشنقيطية في مجراها التقليدي:

لا تختلف الثقافة الشنقيطية من حيث المتن الدراسي عن السائد في الغرب الإسلامي عموما، فهنا وهناك مالكية راسخة لم تعد محل نقاش، والمعتبر من المالكية هو ما اشتهر عن **ابن القاسم العتقي**[3] حتى ولو خالف ما عند مالك في الموطأ، وحلت مختصرات الفروع محل امهاتها حتى اصبح المعول النهائي على الاحكام الواردة في مختصر خليل بن إسحاق وشروحه وحواشيه، حيث اشتهر تمثل الفقهاء الشناقطة بعبارة الشمس اللقاني " نحن قوم خليليون فإن ضل ضللنا" وكثيرا ما ينسبون هذه العبارة الى احمد بابا التنبكتي، وكان بعضهم يصرح انه " ماتكون مسألة في الفقه إلا وحكمها يؤخذ من مختصر خليل"، أما قراءة القرآن وسرد الحديث فقد كانا في الغالب بهدف التبرك لا العمل[4].

ومع صرامة المنطلقات النصانية فقد كان للفقهاء في تنزيل الاحكام على الوقائع المستجدة في عصرهم والعادات الخاصة بمجتمعهم، أسلوب مرن يستهدف "حل الإشكالات الفقهية دون تفريط يمس الأمانة العلمية او افراط يزعزع التقاليد والأعراف المحلية.

---

[1] -البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، المصدر السابق، ص116

[2] -عبدالودود ولد عبدالله، المرجع السابق، ص78.

[3] -ابن القاسم العتقي، من اكبر أصحاب مالك وناشر مذهبه في مصر والمغرب واسمه عبدالرحمن يمكن العودة لشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص59.

[4] -عبدالودود ولد عبدالله، المرجع السابق، ص76.

ولعل لهذه الاعتبارات الاجتماعية والسياسية علاقة بهيمنة الخطاب الفقهي على غيره من الخطابات الثقافية التي أصبحت لها وظائف ثانوية تجعل منها مجرد وسائط لتحصيل العلوم الفقهية كما هو حال علوم الالة (الحساب...) أو أعطيت وظائف رمزية مثل التبرك كما هو الحال (القرآن والحديث والسيرة) مما يحد من فاعليتها الاجتماعية.

واثناء المقارنة بين الفقه والتصوف، يظهر احمد بابا التمبكتي العلاقة بين هيمنة الخطاب الفقهي وفاعليته الاجتماعية. حيث يعتبر الفقه علماً يجر نفعا الى عامة الناس في حين ان علم التصوف، حتى ولو وصل بصاحبه الى اقصى المراد وهو مقام الولاية، فإن منفعته خاصة بالسالك نفسه لا غيره.

لذلك كان التصوف في المراحل الأولى محصورا في دائرة ضيقة من العلماء، ولم يتجاوز في هذا العهد المستوى التأملي. وكانت حكم ابن عطاء الله السكندري، متداولة في هذه الدائرة[1]. وفي ظل غياب التصوف بمفهومه الطرقي انتشرت ممارسات ومواقف يمكن اعتبارها خطابا مكملا للخطاب الفقهي المهيمن.

وكان لكتاب الشفا اعتبار خاص في هذا المجال منذ بداية القرن الهجري التاسع (ق.15) على الأقل، فانتشر في المساجد الصحراوية سرده تبركا به وبما فيه من استحضار لصفات الرسول صلى الله عليه وسلم وتذكيرٍ بحقوقه، وكان الاقبال شديدا على المدائح النبوية، حيث كان في المساجد مداحون مشهورون ومكرمون، وكان مجلس المديح ينعقد كل جمعة بعد قراءة الحزب فينشد المداحون مقطعا من العشرينيات الفازازية وتخميسها لابن مهيب.

وبالجملة كانت هناك الى جانب المتون التي تقرا للتعليم في المسجد متون تسرد تبركا بها في أوقات محددة يحضرها عامة المؤمنين، واهم مناسبات ذلك مولد النبي صلى الله عليه وسلم ورمضان ورجب وشعبان ويوم الجمعة، فكانوا يختمون العشرينيات في العام مرتين سوى ختمات المولد ورمضان، وكانوا يختمون صحيح البخاري خلال أشهر رجب وشعبان ورمضان، والشفا خلال رمضان. ويتبرك الناس كذلك بالفقهاء وفي الغالب نساك ومنهم زاهدون وكانت قبورهم تتحول بسرعة الى مزارات مشهودة[2].

3-التحولات الثقافية الشنقيطية:

[1] -البرتلي، المصدر السابق، ص32.

[2] -عبدالودود ولد عبدالله، المرجع السابق، ص78.

لم تحدث هذه التحولات بين عشية وضحاها، ولم تتحول السمات البنيوية السابق ذكرها كليا. بل كانت التحولات بطيئة لكنها عميقة. لذلك يصعب تحديد التاريخ الذي بدأت فيه. ويمكن بصورة تقريبية ان نعتبر الربع الأخير من القرن العاشر (16م) عهدا شهد تسارعا ملحوظا في حركة التطورات المفضية الى اكتمال مراحل التحول العام الذي أصبح خلال القرن الحادي عشر (17م) واضحاً للعيان. ولعل الملامح الأولى لهذا التحول الثقافي برزت من خلال تفاعل منتجي الثقافة مع محيط اقتصادي واجتماعي يتحول، مما يؤثر على المؤسسات الثقافية بشكل مباشر.

أ- تغير السياق الاقتصادي والاجتماعي:

سبقت الإشارة الى العلاقة الارتباطية بين ازدهار الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة ورواج التجارة العبرة للصحراء. وقد مكنت عوائد هذه التجارة من ظهور مدن مزدهرة تعيش فيها طبقة من العلماء والمتعلمين ذات ثراء ونفوذ كبيرين، وسبق ان اشرنا الى ظروف تراجع التجارة الصحراوية وتبدل مسالكها وما صاحب ذلك من انقلابات سياسية، وكانت محصلة هذه التطورات ان تراجعت مكانة الفقهاء والمتعلمين في المدن التجارية المشهورة فاخذ هؤلاء يهجرون الحواضر القديمة في اتجاه المدن الثانوية او الأرياف.

ولعل من اقدم مؤشرات التوجه الى الأرياف ما نجده في كتاب السودان لمؤلفه عبدالرحمن السعدي بعد سنة 1066هـ/1656م فقد رحل هذا المؤلف مرات عديدة من موطنه الأصلي تينبكتو الى القرى والارياف المجاورة ليسرد كتاب الشفا ويفسره في رمضان او ليصلح بين متخاصمين او غير ذلك من الخدمات الدينية والاجتماعية التي كان الفقيه التنبكتي يحصل مقابلها على بعض الهدايا أغلبها من الحبوب والمواشي[1].

ولعل من أوائل المهاجرين من فقهاء تنبكتو الى المدن التي كانت ثانوية مثل ودان وولاته، شمس الدين بن القاضي محمد بن الفقيه محمود بن عمر من اسرة بل محمد أقيت المشهورة في تنبكتو. فقد هاجر الى ودان سنة 1002هـ/1593م، في ظروف خاصة فهو جد الاقيتين في ودان.

وكان لهذه التطورات انعكاساتها على المكانة الاجتماعية للفقيه، وعلى المؤسسة الاجتماعية بشكل عام، فقد لا حظ الباحثون، انه وابتداء من أواخر القرن السابع عشر الميلادي لم يعد التمييز بين العلماء وغيرهم من اعيان المجتمع المدني واضحاً بالدرجة التي كان عليها خلال القرن 16م، كما انعدمت الفروق تقريبا بين طبقة

[1] -السعدي، المصدر السابق، ص230.

كبار العلماء الذين كان يطلق عليهم لقب عالم حصرا وفئة المتعلمين الذين كان يطلق عليهم لقب "ألفغ"، وفي مثل هذه الظروف، اصبح من السهل على التجار الذين لهم نصيب من معرفة الكتابة العربية أن يلحقوا انفسهم بدائرة العلماء، وشاع في هذه الأوساط التعلق بنسب الفقهاء المشهورين، لان اسم أولاد سيدي محمود أو حفائد احمد بابا كان يعطي الاسر المتوسطة الثروة درجة كبيرة من الاحترام تضاهي مكانة الاسر المشهورة بالثراء.

وهكذا تحول الاطار الاجتماعي لإنتاج المعرفة من محيط ضيق محتكر فيه اسر وشخصيات قليلة شارة العلم وسلطان المعرفة، إلى محيط أوسع تحتكر فيه هذا السلطان وتلك الشارة قبائل تسمى الزوايا، وتحول خطة التعلم والتعليم الى تراث محصور في دائرة قبلية محددة، تقليد كان ولا يزال منتشرا في مجتمعات كثيرة، وكيفما كان الامر فقد احتضنت الثقافة الشنقيطية منذ نهاية القرن العاشر الهجري(16م) على الأقل فئة الزوايا التي تتشكل من قبائل بعضها مقيم في المدن التجارية، وبعضها ظاعن يعيش على الترحال الدائم، دون ان يخل ذلك بسير العملية التربوية، أي ان السياق الاجتماعي للإنتاج الثقافي قد تحول مما سينعكس لا محالة على المؤسسات الثقافية[1].

ب-تحول السياق المؤسسي:

رأينا فيما سبق ان الجامع كان المؤسسة العلمية الأساسية في الحواضر الساحلية، غير ان تحول مركز الثقل الاقتصادي والثقافي الى المناطق الصحراوية حيث القبائل الرحل، قد استدعى ابتكار مؤسسات علمية تلائم الوضع الجديد.

وهكذا ظهرت مؤسسة المحضرة التي لا تزال الى اليوم تثير اهتمام الباحثين، ولعل كتاب خليل النحوي بلاد شنقيط المنارة والرباط اهم ما ألف حتى الان حول هذه الجامعات البدوية المتنقلة، وقد استعرض النحوي شهادات لباحثين شناقطة وأجانب، أجمعت كلها على الإشادة بهذه المؤسسة الفريدة من نوعها في العالم الإسلامي وربما في العالم قاطبة، وأعاد أسباب نشأتها الى عوامل عدة، منها طبيعة الإسلام كونه رسالة دين وعلم، وكذا عناية الشناقطة وتجار الصحراء بالعلم، إضافة الى المراسلات والرحلات الدينية والعلمية وغيرها[2].

[1] -عبدالودود ولد عبدالله، المرجع السابق، ص86.

[2] -خليل النحوي، المرجع السابق، ص55.

الدرس العاشر: المحاضر الموريتانية نشأتها وأدوارها

تمهيد

لقد حظي التعليم العتيق في الصحراء وشنقيط بعناية كبيرة، ومن هنا كان الاهتمام بتشييد المدارس العتيقة رغم مايعرفه مجتمع الصحراء من ترحال، وسنوات جفاف تعد من سمات المجال الصحراوي، فقد تكونت فئة متعلمة تحظى بتقدير كبير من محيطها وخارجه، فاستطاع كذلك ان يكيف هذا التعليم مع الظروف التي تعرفها المنطقة، والذي كانت المحضرة هي مؤسسته التعليمية.

1- تعريف المحضرة:

اقترن مصطلح المحضرة في المجتمع الصحراوي الذي يشمل بلاد شنقيط ومناطق وادي نون والساقية الحمراء ووادي الذهب بمصطلح المدرسة المتنقلة، او المستقرة، حيث يعلم البدو وناشئتهم أمور الدين والدنيا من تعلم القرآن وعلوم اللغة الى مسائل الحساب والفلك والطب، وعيا منهم بأهمية التعليم في حياة الافراد والجماعات، وعرّف خليل النحوي المحضرة بقوله " المحضرة مؤسسة من مؤسسات التربية العربية الإسلامية الاصيلة تحمل بعض سمات وخصائص النظام التربوي الذي نشأ وازدهر في أحضان مدن الثغور وحواضر الخلافة والثقافة، ولكنها تتميز بسمات هي فيها أبين وأبرز، أو هي خالصة لها دون غيرها من المؤسسات التربوية العتيقة، فالمحضرة جامعة شعبية، بدوية متنقلة تلقينية فردية التعليم طوعية الممارسة"[1] .واول محضرة أنشئت كانت في المدينة المنورة[2].

ونجد ذكر مصطلح المحضرة في اللسان الامازيغي على صيغة "تمحضارت"[3]، ومصطلح محضرة مشتق لغوياً من اسم مكان على صيغة مفعلة، كما يحمل اشتقاقين من الناحية اللغوية، الأول ان تكون مشتقة من فعل حظر، أي منع بوسيلة مادية ومعنوية، فهي ماديا الحظيرة التي كانت تحيط بخيمة شيخ المحضرة ومصلاه

---

[1] -خليل النحوي، المرجع السابق، ص55.

[2] -عبدالهادي حميتو، حياة الكتاب وادبيات المحضرة صور من عناية المغاربة بالكتاتيب والمدارس القرآنية، ط1 منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2006، ج1، ص147.

[3] -تمحضارت، اسم لحفل ديني يقام على شرف الطلاب "المحضارن" الذين تمكنوا من حفظ ستين حزباً ومصطلح محضرة مشتق لغويا من اسم مكان على صيغة مفعلة.

لحمايتها من الحيوانات وغيرها، أما معنوياً فيقصد بها الحظر الذي يمارسه الشيخ على الطالب المحظري بمنعه من التجوال داخل الفريك[1] والاختلاط بأهله والانغماس في مشاغلهم الدنيوية وإلزامه بالتفرغ للعلم.

وتسند مهام التدريس بهذه المنظومة التعليمية في الصحراء الى معلم يدعى ب "الطالب" أو "المرابط"، حيث ان تواجده بالفريك تنظمه اعراف اعتاد عليها سكان الصحراء، وهي عبارة عن عقد عرفي يربط فيما بين الطالب وسكان الفريك يسمى الشرط او المشارطة كما هو الشأن في باقي مناطق المغرب، حيث يقوم الطالب على أساسه بتعليم الأطفال الحروف الهجائية ويحفظهم سور كتاب الله وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمدة سنة كاملة ويحصل الطالب مقابل ذلك على مقابل عيني من قبل عائلاتهم يتمثل عادة في الشعير، أو رأس او رأسين من الابل، أو بضع رؤوس من الماعز أو الغنم حسب نوع الماشية التي يمتلكونها، إضافة الى المؤونة اليومية التي يبعث بها السكان الى الطالب من عيشهم اليومي[2].

ان المحضرة تميزت باستلهام منهج تعليمي متسلسل يرتبط بالكتب إذ كلما اتم الطالب مجموعة من الكتب انتقل الى غيرها، وذلك تبعا لثلاث مراحل هي:

-المرحلة الأولى: ويقوم فيها الأطفال بتعلم كتابة الحروف الابجدية ثم حفظ القرآن الكريم مع رسمه وتجويده بقراءة الامام نافع برواية ورش.

-المرحلة الثانية: ينتقل الطالب فيها الى دراسة الكتب مثل الاجرومية في النحو ومنظومة الاخضري.

-المرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي يكتمل فيها تعليم الطالب وتقوم فيها المحضرة مقام الجامعة، حيث يزداد حجم المواد والمعارف التي يتلقاها الطالب "فهو الذي أكمل المتون المحضرية، واطلع على المراجع المعتمدة فيها واخذ منها بحظ وافر حفظا وفهما واجتهادا"[3].ويدرس فيها كتباً من نحو مختصر خليل ورسالة ابي زيد القيرواني ونظم بن عاشر وتفسير بن كثير وغيها من الكتب القيمة، حيث ان نظام المحضرة يرتكز على الحفظ ويدرس كل فن من العلوم على حدة، فلا ينتقل الطالب من فن الى آخر حتى يتقن الأول، ولأهمية الحفظ في اكتساب

---

[1] -الفريك، جمع فركان وهو عبارة عن مجموعة أسر من قبيلة واحدة يتنقلون بحثا عن الماء والكلأ لماشيتهم

[2] -فاطمة دهوز، لحبيبة آحايك، أعلام اللغة والنحو في الصحراء وشنقيط، ضمن كتاب الصحراء في العلاقات المغربية الافريقية، تنسيق محمد بوزنكاض، دار ابي الرقراق للطباعة والنشر، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2015م، ص167.

[3] -ابي علي يحي بن الشيخ يربان القلقمي، أعلام الشناقطة في الحجاز والمشرق جهودهم العلمية وقضاياهم العامة، من القرن الخامس الى القرن الخامس عشر الهجريين، ط1، دار النشر الدولية، 2009م، ص82.

العلوم طفق القوم ينظرون له تنظيرا جاداً، فمن التقاليد المتداولة عندهم لحفظ النص استيفاء ما يعرف "**بعشرة المختار**"، ويعني ترديد الدرس اليومي خمساً وخمسين مرة ويستعينون على ذلك بنقاط ترسم على اديم الأرض في شكل هرم قاعدته عشرة نقاط وقمته نقطة واحدة وكلما قرأ الطالب مرة يمحو نقطة، فإذ استوفى حفظ درسه بهذه الطريقة يقولون إنه لن ينساه بعئذ. وهكذا تمكنت المحضرة من نشر العلم والمعرفة في مختلف المناطق التي وجدت بها، فتمكنت من تخريج أفواج من العلماء الحفاظ كانوا يحملون علمهم معهم في حلهم وترحالهم[1].

2-أصناف المحاضر:

تعددت أصناف المحاضر بتعدد أنظمة التدريس داخل المحضرة، إذ أن تخصص الشيخ في فن معين غالباً ما يجعله يؤسس محضرته على طريقته الخاصة، فتنوعت بذلك أصناف المحاضر. ونذكر هنا ثلاثة أصناف:

أ-الصنف الأول: محضرة جامعة وهي المحضرة التي يدرس فيها جميع العلوم التي تغني ذهن الطالب ونذكر منها محضرة الأمين بن احمد زيدان الجكني.

ب-الصنف الثاني: محضرة متخصصة وهي المحضرة التي تختص في تدريس اللغة العربية او الفقه، ونذكر منها محضرة الحاج بن فحف، ومحضرة آل عبدالودود في غرب موريتانيا ويدرس فيها كتاب الاجرومية والفية بن مالك، اما في الفقه فنجد محضرة اهل محمد سالم الجكني شمال موريتانيا وحضرة المرابط اباه لمؤسسها محمد الحسين اللمتوني الملقب بأباه بوسط شنقيط ومحضرة محمد بن صالح الجكني بمنطقة أفطوط.

ج-الصنف الثالث: محضرة قرآنية، وهي التي تخصصت في تحفيظ القرآن الكريم مع ضبط رسمه وتجويده وتفسيره، ومنها محضرة أبا حازم بالساقية الحمراء.

3-نظام التدريس في المحضرة:

تعمل المحضرة على نهج نظام تدريسي خاص بها، لا من حيث الاستعمال الزمني ولا من حيث المواد المدرسة فيها، وتقوم المحضرة في أساسها على الاستظهار حيث يشتغل الطالب بحفظ درسه، فيقراه مرات بصوت مرتفع حتى يرسخ في ذهنه وقلبه، ونسمي ذلك ب "اغبابيد" مفردها "غباد" وفيه معنى المكابدة لما يبذله الطالب من جهد لاستظهار النص قبل ان تنضج لديه ملكة الحفظ، ويقوم بقراءته هاته ضاغطا بالقلم على لوحه المكتوب ليساعده على الاستيعاب وليظهر للطاهر انه منهمك في حفظ لوحته، ومن المتعارف

[1] -فاطمة دهوز، لحبيبة أحايك، المرجع السابق، ص169.

عليه في محاضر الصحراء وشنقيط أن الطالب لا يفد على المحضرة الى بعد بلوغ خمس سنين وخمسة أشهر وخمسة أيام، حيث يبدأ بتعلم الحروف الهجائية ثم السور القرآنية ابتداء من القصيرة منها حتى الطويلة وتختلف أعمار الطلبة الوافدين على المحضرة إذ غالباً ما تكون مستوياتهم متفاوتة نظرا لتفاوت أعمارهم وتفاوت الفترة الزمنية التي ولج فيها كل واحد منهم الى المحضرة، وينقسم الدرس اليومي في المحضرة عموما الى ثلاثة مراحل وهي:

أ-المرحلة الأولى: وتبندء بعد صلاة الفجر ويقرأ فيها الطالب الحزب الراتب ويحفظه على الشيخ عن ظهر قلب ثم يقوم بكتابة آيات جديدة ويصححها ويقراها قراءة لابأس بها، فهو يلقب بالمبتدئ لانه يعمل على التهجي ودراسة مبادئ الدين واللغة، حيث يتم التعليم عند اهل الصحراء بطريقة تقليدية تبتدئ بتعليم الحروف الابجدية (الليف، الباء، التاء...) ثم يتعلم الطفل او الطفلة اللذان يفدان على الفقيه "بالمسيد" في سن مبكرة الحروف التي لها نقط والتي لا نقط لها (الليف ماينكطش، والباي تحت وحده) بطريقة مفككة ثم ينتقل به الفقيه الى الحروف المركبة من حرفين مع ذكر الحركات كقولهم (بانصبه جابدها ليف)، (بورفعة جابدها واو)..

ويؤدب التلميذ في هذه المرحلة بالترغيب والترهيب وبالضرب أحياناً وما ان يتاكد الطالب من حفظ الطفل لوحته حتى يأمر بمحو كتابتها بالماء وتلبيسها الصلصال وجعلها تجف إن كان الطقس دافئاً، أو تجفيفها على لهيب النار، ثم يكتب له السورة الموالية ويكون الوقت حينها شروق الشمس موعد خروج الماشية، باعتبار الرعي هو وظيفة بدو الصحراء والاساس الذي تقوم عليها معيشتهم[1].

ويحمل الطفل لوحه أثناء قيامه بالرعي ليحفظه ليعود في المساء مع ماشيته، وهو (مطيب لوحته) أي حفظ ما كتب عليها ليعرضها على مسامع الطالب وينتقل الفقيه بعد ذلك بالمتعلم الى الاحرف المركبة (أبجد، هوز، حطي،...)، وعندما يتمكن المتعلم من معرفة الحروف البسيطة المرتبطة بكافة الحركات والمركبة من كلمات منفصلة، ينتقل به الى الفقيه الى تعلم البسملة وفاتحة الكتاب بكتابة آية أو آيتين على القدر الذي يستطيع المتعلم استيعابه وهكذا الى أن يختم القرآن الكريم، وكلما اتم حزباً قدم للفقيه إحساناً يتمثل فيما

[1] -مجلة دعوة الحق، الصحراء ارض العلم والصلاح، ع400، جوان 2011، ص90.

يسمونه (الغدوة) أي الغذاء الذي استوجبه إتمام الحزب، وهناك من يذبح ويطبخ طعاما جيداً يقدمه للفقيه بمعية ساكني (لفريك).

ب–المرحلة الثانية: تبتدئ بعد صلاة الظهر، يقرأ فيها الطالب ما كتبه في الصباح فيكون ملزما بحفظه.

ج–المرحلة الثالثة: تبتدئ بعد صلاة العصر، وهي مرحلة مراجعة لما درسه الطالب في الصباح، حيث يتوجه الطفل الى المحضرة ليعرض على الطالب ما حفظه اثناء رعيه الغنم، لان الفترة المسائية في المحضرة تكون مخصصة للمراجعة.

وهكذا وظب المجتمع الصحراوي على تشجيع التعليم والعناية بالمحضرة باعتبارها الاشعاع العلمي الوحيد الذي يساعد على بعث جيل متعلم وتلقينه مبادئ الدين وعلوم اللغة، فكانوا يدفعون بأبنائهم الى المحضرة منذ الصغر، وإن كان يقتصر التعليم لديهم على الذكور من الأطفال، أما الفتيات فكن يستثنين منه عندما يبلغن سن العاشرة، حيث يكن قد أكملن الفترة المسموح بها لهن في الدراسة في المحضرة، فتسحب الفتيات على اعتبارهن أصبحن على مسافة قريبة من سن الزواج، وعادة ما يتزوجن فيما بين سن الثانية عشرة والرابعة عشرة.

4–المقررات اللغوية في المحضرة:

أ–القرآن الكريم: شكل القرآن الكريم محوراً من المحاور الأساسية والرئيسية التي تدرس في المحاضر والزوايا فقد عرفت مثلا "زاوية الشيخ ماء العينين في مدينة السمارة...حركة تأليف واسعة حول علوم القرآن[1]، فكان اداؤه عندهم برواية ورش عن نافع، وقد اشتهر الكثير من العلماء في الصحراء بالقراءات السبع والعشر، ومن ابرز الكتب في القراءات والتجويد المقررة على الطلاب "الدرر اللوامع في أصل مقر الإمام نافع" لعلي بن محمد بن بري، ويتعلم الطلبة الى جانب التجويد اشكال الرسم والضبط والاملاء والتفسير

ب–الحديث وعلومه: وقد عرفوا فيه كتبا عديدة، ففي كتب الحديث نذكر موطأ الامام مالك والصحاح الستة، وفي مصطلح الحديث، درسوا منظومة البيقونية، والفية زين الدين العراقي وغيرها

[1] –ثقافة الصحراء، مقوماتها المغربية وخصوصياتها، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية، سلسلة ندوات، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2003م، ص103.

ج–العقيدة: ومن الكتب المتداولة لديهم رسالة ابن ابي زيد القيرواني، وعقيدة المرشد المعين، والعقيدة السنوسية، ووسيلة السعادة للمختار بن بونا الجكني وغيرها.

د–الفقه: ومن أبرز المقررات الفقهية عندهم "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" لعبد الواحد بن عاشر السلوي، وفي القواعد نذكر من المقررات "لامية الزقاق" في القضاء.

هـ–اللغة العربية وعلومها: عرفت المحضرة تنوعا كبيرا من حيث الكتب المتداولة في هذا المجال فمنها ما هو محلي، ومنها ما هو مستجلب من الشرق والمغرب، ونجرد هنا أهم المقررات النحوية واللغوية التي كان يدرسها الطلبة.

–النحو والصرف: درست فيه العديد من المقررات وكان اكثرها حضورا رسالة ابن اجروم المعروفة ب "الأجرومية" التي ناهزت شروحها الثلاثين، وأنظامها أربعة مشهورة، أشهرها نظم أب الغلاوي المعروف ب "عبيد ربه" ونذكر أيضاً، ملحة الاعراب للحريري وألفية محمد بن مالك الاندلسي، واحمرار بن بونة على ألفية بن مالك، ولامية الأفعال

–اللغة العربية: ومن المقررات البارزة فيها نذكر المعلقات العشر، وقصيدة بانت سعاد، لكعب بن زهير، الشمقمقية لأحمد بن محمد التواتي.

–البلاغة والمعاني: ومن أبرز المقررات فيها الفية السيوطي (عقد الجمان) والجوهري المكنون للأخضري.

وبالإضافة الى هذه العلوم، برزت مجموعة من المقررات في مختلف المجالات كالفلك والجغرافيا والطب والتصوف والآداب الاجتماعية والحساب وهندسة وغيرها[1].

وبذلك استطاع الطالب في المحضرة ان يتكون تكوينا متفوقاً اذ كان العلم عندهم علمين، علم الأديان وعلم الأبدان، غير انه يمكن القول إن معارف الشيخ ليست محصورة في هذه القائمة. منهج المحضرة إذن على مرونته منهج مثير متنوع بعيد على الرتابة، وهو يشترك مع منهج مدارس العلم في المغرب في أشياء، وقد يفيض عنه في أشياء أخرى[2].

5–موارد المحضرة:

[1] –محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ط1، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2003، ص31

[2] – فاطمة دهوز، لحبيبة أحايك، المرجع السابق، ص178.

غالبا ما تلتزم المحضرة بتدريس الناشئة دون تحديد مقابل مادي تتقاضاه شهريا او سنويا بحيث يرتهن الشرط –أي اجرة المحضرة– برغبة ولي الطالب وكرمه، وكذا بحسب مقدرته واستطاعته ويتكلف اهل لفريك بقضاء حاجات المحضرة من الهدايا والعطاءات التي تمنح من قبل أولياء الطلاب مقابل اهتمامهم بحفظ القرآن كاملاً ، وغالبا ما يكون من رؤوس الغنم او الماعز، او من الإبل، أو من القمح والشعير حسب المورد المادي لولي الطالب، كما تمنح للمحضرة الزكاة والاعشار، إذا لم يكن بالقبيلة من يستحقها شرعا ودون احتسابها كشرط.

وللمحضرة بدورها قطيعها الخاص الذي يتكلف برعيه رعاة "لفريك" اذا لم تكن المحضرة تملك عبيدا، أو إماء. والطالب في المحضرة "إما أن يكون مقتدراً فياتي بزاده من الزرع والضرع، والبقر أنسب وخير معين على الدراسة لقلة مشقته ولاستغنائه عن الراعي لذلك سموه "حيوان الزوايا"، واما إذا كان الطالب معوزا وهو الملقب ب "المؤيد" أو "تلميذ الغربة" فإن شيخ المحضرة هو الذي يتكلف بنفقته، أو يقاسمه زملاؤه ما عندهم، او تتناوب أسر الحي إعالته، ولا سبة في ذلك ولا غضاضة[1].

تعد المحاضر بحق استثناء علميا في بلاد صحراوية قاحلة وجافة، لم تمنع الشنقيطي من امتلاك أسباب الوجود والتواجد جسد ذلك ولا غرابة في محضرة صغيرة متنقلة تضاهي في تكوينها وتأثيرها جامعات عريقة في العالم العربي والإسلامي.

[1] –ابي علي يحيد بن الشيخ القلقمي، المرجع السابق، ص79.

الدرس الحادي عشر: القضاء في بلاد شنقيط

تمهيد:

تكتسي دراسة النظام القضائي في موريتانيا القبيلة–المشيخة–الامارة، أهمية خاصة من الناحيتين النظرية والعملية، وإذا كان المؤرخ مطالب ببحث الموضوع من زاويته النظرية، فإن عليه أن يعالج الكيفية التي مورس بها القضاء على أرض الواقع المعيش، وطبيعة تلك الممارسة والسياقات التاريخية التي حكمتها.

فبنو حسان الذين احكموا سيطرتهم السياسية والعسكرية على معظم الأراضي الموريتانية في الفترة الحديثة، لم يوحدوها سياسيا وانما وحدوها ثقافيا بنشر لهجتهم في عموم المنطقة الممتدة من تخوم وادي درعة شمالا الى ضفاف نهر السينغال جنوبا، ومن المحيط الأطلسي غربا الى ازواد شرقا، وهؤلاء لم يحدثوا نقلة نوعية في مجال التنظيم السياسي الذي كان سائداً بالمنطقة الا بعد عملية مخاض تاريخي عسير استغرق زهاء ثلاثة قرون من الزمن وتولد عنه قيام الامارات المغفرية، أو المتمغفرة في الترارزة والبراكنة ثم في ادرار وتكانت[1].

ويختلف هذا التنظيم الاميري شبه المركزي عن التنظيم القبلي السائد على مستوى كل مجموعة قبلية بجمعه تحت سلطة سلالة أميرية واحدة مجموع القبائل الحربية والزاوية والتابع في المناطق التي قامت فيها تلك الامارات، اما أقصى شمال غربي البلاد وشرقها فقد استمر تنظيمها على السنن القبلي القديم، ومن شان هذا التفاوت في مستوى التنظيم السياسي والاجتماعي ان يترك أثره على ممارسة السلطة القضائية في ذلك المجتمع

ولا يكاد يخلو تجمع قبلي من فقيه يستفتيه اهله في اشكالاتهم ويحتكمون اليه في نزاعاتهم حتى قال محمد بن محنض بابه (ت1319هـ/1902م) إنه لا تخلو أكثر قبائل الزوايا من محاكم اليه اقل ما يحصل من الرفع اليه، الإخبار بالحكم، وتكدير الحرام"[2].

1–القضاة والنظام القضائي:

[1] –محمد المختار ولد السعد، موريتانيا في العهد الحساني ملامح التحولات الاجتماعية والسياسية من القرن 14 الى 19م، ضمن كتاب "تاريخ موريتانيا فصول ومراجعات"، نواكشوط، 1999م، ص93.

[2] –محمد المختار ولد السعد، دراسات في التاريخ الموريتاني، مقاربات منهجية ومعالجات سوسيو ثقافية، دار جسور عبدالعزيز، نواكشوط–موريتانيا، 2017، ص307–308.

يبدو من العودة الى المصادر أن بلاد شنقيط قد عرفت ثلاثة أنواع من القضاة يمثلون الهرم القضائي فيها، هم قضاة الجماعة، والمحكمون، والقضاة المحليون (قضاة القبائل) الذين لا يتسع المقام للخوض في امرهم والاحاطة بهم رغم ادوارهم العملية البارزة في مجتمع الامس وممارساته القضائية.

أ-قضاة الجماعة:

كان لمعظم المشيخات والامارات التي عرفتها البلاد في القرون الثلاثة الماضية قضاتها العامون الذين يطلق على كل واحد منهم اسم قاضي الامارة أو قاضي الجماعة، ويعتبر اصطلاح **قاضي الجماعة**[1] في عموم منطقة الغرب الإسلامي مماثلا لاصطلاح **قاضي القضاة** في المشرق، ويمثل قاضي الجماعة اعلى سلطة تشريعية في المنطقة الموجود بها، ويتم نصب هؤلاء القضاة في كل منطقة من قبل جماعة الحل والعقد تقوم مقام الإمام فيها، أو باطراد رفع النوازل إليهم، كما نصت على ذلك المصادر الفقهية وأقرّه أكثر من مفتي في البلاد.

وسئل حمى الله التيشيتي(1696-1755) في نوازل القضاء" عن جماعة المسلمين هل تقوم مقام الحاكم في كل شيء ولو في الحدود، فأجاب: الجماعة في البلد الذي لا حاكم فيه تقوم مقام الحاكم في الحدود وغيرها" وأحال الى كلام الونشريسي بهذا الخصوص نقلا عن الاجهوري عند قول أبي المودة "لا لعدول وجيرا..."

وصرح الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت1811/1226) بوجوب قيام جماعة الحل والعقد بنصب القضاة في حال غياب الأمير حين قال "واما القاضي فهو نائب الامام في تنفيذ الاحكام الشرعية، فإن كانت الأرض سائبة أو في حكم السائبة وجب على الجماعة الصالحة تقديم قاضٍ"

وذهب محنض بابه بن أعبيد (1771-1860) الى أنّ "من تواطأ أهل بلده على تحكيمه في نوازلهم يكون ذلك كنصبه للقضاء" ، وذهب بكي أبعد من ذلك أثناء تلك المناظرة الفقهية ين صرح بأحقية أمير الترارزة في زمنه في نصب القضاة، فقال "لا شك ان عقد مثل سيدي بن محمد الحبيب للقضاء معتبر لأنه متغلب، والمتغلب تثبت به الامارة"[2].

---

[1] -استحدثت تسمية قاضي الجماعة في الاندلس ابتداء من عهد عبدالرحمن بن معاوية

[2] -خديجة بنت الحسن، إمارة الترارزة في عهد سيدي بن محمد الحبيب، جامعة تونس الأولى، شهادة الكفاءة في البحث (989-1990)، ص66.

وقد عين الامام ناصر الدين (ت1673/1084) بعد مبايعته مجلساً للقضاء حيث استقضى محمد بن حبيب الله الالفعي، والفاضل بن أبي الفاضل الحسني، والفاضل بن بارك الله فيه الديماني، والحبيب بن الحسين اليدن يعقوبي، وسموا الالفعي قاضي المجلس لأنه هو الذي يقضي في مجلس ناصرالدين، وكان من أحظى الناس عنده[1].وكان لخطة القضاء وللقضاة شان كبير في دولة ناصر الدين القصيرة الأمد، وبلغوا من الكثرة مبلغاً جعل احدى معارك شربيه تسمى "كثيب القضاة" لما مات فيه من القضاة على حد قول اليدالي[2].

وقد تولدت على ما يبدو عن اختيار أولئك القضاة من نفس المحيط الاجتماعي ظاهرة توارث بعض الاسر الشمشوية للقضاء في الامارة، كأسرة اهل المختار بن الفغ موسى، وآل احمد بن العاقل، وآل محنض بابه بن اعبيد..الخ، ولا تكاد تذكر المصادر دوراً لأمراء البراكنة في تنصيب القضاة بمنطقتهم ولا ما كانوا يرتبطون به علاقات مع مشاهير قضاتها كحبيب الله بن القاضي (1825/1241) وابنه محمد محمود (1860/1277) الذي يذكر صاحب عيون الإصابة أنه "كان قاضياً في أرض البراكنة وما والاها خبيرا بخطة القضاء(...)انقطع به قول الحق في بلاده طبيبا بادواء الفتوى والاقضية عارفا بالمزاج"[3].

وكان القضاة في المدن التجارية الصحراوية يتصدرون هيئة العلماء ويضطلعون بالسلطة الحقيقية في تلك المدن[4]، ومن أولئك القضاة الكثر الذين احتفظت المصادر برواية اضطلاعهم بتلك الخطة محمد بن عبدالله بن احمد قاضي ودان في ملتقى القرنين 16 و17، ومحمد المختار بن الاعمش (1625-1695) في شنكيطي، والطالب جدو بن الشيخ المختار العلوي[5].

ولم يكن فصل الخصام وحل كبريات النوازل الملمة مقصوراً على قضاة الجماعة في المدن والأرياف، بل كثيراً ما لجا الخصوم وأولو الامر وحتى القضاة المنتصبون للقضاء أحياناً الى التحكيم.

ب-القضاة المحكمون:

---

[1] -محمد اليدالي، "أمر الولي ناصر الدين" ضمن الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، تحقيق محمذن بن باباه، بيت الحكمة، تونس1991، ص164.

[2] -محمد المختار ولد السعد، دراسات في التاريخ الموريتاني، المرجع السابق، ص312-313.

[3] -محمد المختار ولد السعد، دراسات في التاريخ الموريتاني، المرجع السابق، ص315.

[4] -عبدالودود ولد عبدالله، المرجع السابق، ص87.

[5] -البرتلي، المرجع السابق، ص81.

وهم من يحكمهم الخصمان في النزاع بينهما، وتشترط في المحكِم العدالة المعرفة والحياد في الخصومة المحكم فيها، ولا يطال نظر المحكم-بخلاف قاضي الجماعة الراتب- مختلف المجالات بل يقتصر أساسا على الأموال والجراحات، فلا يجوز التحكيم مثلا في المظالم المحتاج صاحبها لعلو يد وعظيم رهبة للبت في الحدود واللعان، والولاء، والنسب، والطلاق، والعتق، والرشد، والسفه، وما تعلق بالغائب من أمور.

ويحدد احد الفقهاء الموريتانيين مجال ولاية التحكيم باختصار فيقول "ولاية التحكيم مستفادة من آحاد الناس متعلقة بالأموال دون الحدّ وما يعظم فيه الخطر ويقع الالتباس:" وعرفها الكنتي التعريف نفسه محددا منزلتها القضائية حين قال "إن ولاية التحكيم بين الخصمين (...)، ولاية مستقاة من آحاد الناس، وهي شعبة من القضاء متعلقة بالأموال دون الحدود والقصاص".

وعلى الرغم من ان قرار المحكم يعتبر -عادة- مجرد رأي في المسألة المنازع فيها، فإنّ من المحكمين من زاوج بين دور القاضي المحكم ودور القاضي المنصوب للقضاء، فقد تعايش هذان الشكلان من التقاضي بشكل طبيعي في العهد الحساني لحل إشكالات الاجتماع البشري ونوازله المتشعبة، وإن أثار ذلك التعايش أحيانا بعض اللبس بشأن نفوذ وصلاحيات المحكم في "بلاد لقاح" كبلادنا، ويبدو أنّ هناك خلافا بين الفقهاء بشان مدة صلاحية حكومة المحكم وما لقراراته من قوة وحصانة قانونية، وعلى الرغم من ذلك فقد أعطت تلك الوضعية قوة ونفوذا كبيرين للقضاة عززتها مكانتهم المزية في المجتمع وما يتمتعون به من صلاحيات وحقوق قانونية ومهابة ووقار اخلاقيين[1].

2- صلاحيات القاضي وحقوقه الشرعية:

يتمتع قضاة العهد الحصاني بصلاحيات واسعة تستمد شرعيتها التاريخية من موروث التجربة المرابطية التي ردت أحكام البلاد الخاضعة لسلطتها الى القضاة ولم تكن تقطع امراً دون مشورتهم من جهة، ومن طبيعة التخصص الوظيفي في المجتمع الموريتاني الي يجعل تأويل النصوص الشرعية وتنزيلها على الوقائع والمستجدات الاقتصادية والاجتماعية حكراً على الفقهاء وفئتهم الزاوية من جهة أخرى، وتعزز ذلك الدور بحكم استناد السلطة الاميرية الإيديولوجي إلى سراة فقهاء الزوايا ومشايخهم لتوفير الشرعية الدينية والحماية الروحية.

[1] -محمد المختار ولد السعد، المرجع السابق، ص335.

وبذلك فقد طالت مشمولات نظرهم مختلف مجالات حياة الناس من فصل بين الخصوم، ونظر في أموال المحجور عليهم، ووصايا المسلمين واوقافهم وتوزيع زكواتهم، وتزويج الأيامى عند فقد الاولياء، وتعديل وتجريح الشهود ورجال التوثيق، والنظر في المظالم الجامعة والجرائم، وإقامة الحدود إن وجدوا الى ذلك سبيلاً.

وعليه فقد كان على هؤلاء القضاة مدار الاحكام وإليهم النظر في مختلف وجوه القضاء مما يبرهن على اتساع دائرة صلاحياتهم وعلو شان خطتهم الشرعية، وقد حملت جسامة هذه المسؤوليات بعض الفقهاء من اهل الورع والصلاح، على التهرب من الدخول في ولاية القضاء والترغيب في الإعراض عنها والنفور منها إشفاقا على أنفسهم من مهالكها، في حين رغب فيها آخرون وأبرزوا مكانة القضاء من الدين.

3-قضاة في العهد الحساني:

نورد بإيجاز بعضا ممن تولوا خطة القضاء في الامارات والمشيخات وكبرى المراكز الحضرية الصحراوية من مطلع القرن 17م الى نهاية القرن 19م.

-سيدي محمد التنبكتي الولاتي (ت1050هـ/1640م) كان احد اعيان ولاتة البارزين وقاضيها وعالمها في زمانه، قبل أن يرحل الى تنبكتو ويوافيه الاجل بها. وكان يفتي بعدم تحريم الربا مع اللصوص مستغرقي الذمم، وقد خالف الحاج الحسن بن اغبدي الزيدي (ت1123هـ/1711م) ذلك الرأي واكد على الموقف المبدئي القاضي بحرمة الربا بين جميع المسلمين[1].

-محمد بن المختار بن الاعمش الشنكيطي (1036/1107-1625/1695) أكبر اكبر فقهاء مدينة شنقيط ,احد ابرز الوجوه العلمية في البلاد خلال القرن 17م، اخذ عن علماء وقته من أمثال عمر بن المحجوب الولاتي، وعبدالله بن محمد بن حبيب العلوي، تفقه حتى صارت اليه الرئاسة الدينية والدنيوية في شنقيط وتصدى لاصحاب التيار الباطني بالمنطقة (ناصر الدين في القبلة، والامام المجذوب في اطار)[2].

-أبوبكر بن محمد بن الحاج أحمد بن أند عبدالله الولاتي المحجوبي (1665-1751/1208-1793) تولى مكرهاً قضاء ولاتة عام 1787/1202، بأمر من مولاي زيدان ابن مولاي عبدالكريم وبترتيب اهل الحل والعقد من أهلها، قال عنه صاحب فتح الشكور " إنه خاتمة قضاة العدل" ولي القضاء بعد امتناع

[1] -البرتلي، المصدر السابق، ص114.

[2] -نفسه، ص161.

واستعفى ولم يجب وسار احسن سيرة، وباشر القضاء بنزاهة وعفة، لا يستحيي من الناس في قول الحق، قرباء كانوا او بعداء، ولا يخاف في الله لومة لائم أشتد على أهالي الشر، وعدل في الحكم وزهد في النفع[1].

[1] –البرتلي، المصدر السابق، ص81.

الدرس الثاني عشر: الإمارات الموريتانية الحديثة

تمهيد:

كان من نتائج التحولات التي عرفها بلاد الحوض الموريتاني جراء حروب شربة ظهور إمارات جديدة سماها بعض الباحثين باسم الامارات المغفرية والمتمغفرة، ولا ضير في تسميتها بالامارات الموريتانية الحديثة، وقد تأسست هذه الامارات خلال القرنين 17 و18 على أنقاض سلطة انيزك في القبلة، والانباط في تكانت والقيبة، وايديشلي في آدرار وأبدوكل في الشمال، وغطت جغرافياً أغلب مناطق البلاد.

1-الامارات الموريتانية الحديثة:

أ-إمارة لبراكنة:

أسست إمارة البراكنة سنة 1631، وكانت حدودها في القرنين 17 و18 تمتد من تيرس شمالا حتى نهر السنغال جنوباً، إلا أنها تقلصت لصالح جاراتها في الترارزة وبدرار وتكانت لما عانته من ضعف بسبب الحروب الداخلية بين العائلات الأميرية، وقد أبرمت لبراكنة العديد من الاتفاقيات مع الأوروبيين تسمح لهم بتسهيلات تجارية في الجزء الواقع تحت نفوذها من نهر السنغال. وبعد مقاومة بطولية للاستعمار على النهر وداخل ترابها، احتلها الفرنسيون سنة 1904م، وكان آخر امير للبراكنة هو المجاهد أحمدو الثاني ولدسيد اعل ولد أحمدو ولد سيدي اعل ولد المختار ولد اغريش الذ خلف والده 1311هه/1893م[1].

ب-إمارة اترارزة:

ظهرت سنة 1632وسيطرت على المنطقة الممتدة من جزيرة آركين في الشمال وحتى نهر السنغال جنوباً، وفيها كانت المحطات التجارية التي أسستها على التوالي البرتغال واسبانيا وهولندا وبريطانيا وفرنسا ابتداء من نهاية النصف الأول من ق 15م. ومن أشهر امراء اترارزة بعد المؤسس هدى ولد احمد بن دمان، ابنه اعل شنظورة (1703-1727) الذي وطد أركان الامارة بذهابه الى المغرب يطلب العون من الملك مولاي إسماعيل الذي وضع تحت تصرفه قوات من قبائل واد نون انتصر بها على لبراكنة.

[1] -Marty Paul, Etude sur l'Islam et les tribus maures, les Brakna, Ernest Leroux, Paris, 1921, P125.

وقد أدى هذا الانتصار الى جعل امارة اترارزة سلطة معتبرة اعترفت بها القوى الأوروبية ووقعت معها اتفاقيات عديدة ابتداء من النصف الثاني من ق17م، وبعد مقاومة بطولية طويلة خاضتها الامارة على شواطئ المحيط، ثم على النهر في عهد الأمير محمد لحبيب ولداعمر ولد المختار ولد الشرقي ولد اعل شنظورة (ت1277هـ/1860م)، وآخرون بعده دخل المحتل الفرنسي بلاد اترارزة نهاية 1902م[1].

ج–إمارة آدرار:

تأسست سنة 1145هـ/1745م، من طرف أولاد يحي بن عثمان ومن أشهر أمرائها احمد ولد سيد احمد الملقب "ولد عيدة" (ت1277هـ/1860م) وتمتاز امارة آدرار بما تضمه من معالم أثرية وتاريخية في آزوكي التي يعتقد أنها أول عاصمة للمرابطين وفي تنيكي المدينة العلمية المعروفة، وفي آدرار مدينتا ودان وشنقيط التاريخيتان، وجرت في آدرار ملاحم بطولية خاضتها المقاومة الوطنية بقيادة مجاهدين أبطال في مقدمتهم الأمير سيد احمد ولد احمد ولد امحمد ولد عيده، إلا أن القوات الفرنسية بقيادة الجنرال غورو استطاعت بعد معارك ضارية احتلال مدينة اطار عاصمة أدرار يوم 09يناير 1909م.

د–إمارة أولاد امبارك:

قبل ان يستقر أولاد امبارك في الحوض مكثوا فترة في منطقتي إنشيري والقبلة خلال القرن 16م، كما قضوا فترة في تكانت واستقروا في المناطق الشرقية ابتداء من ق 18، وتكونت امارتهم من عدة مشيخات منها سلطة أهل بهدل في منطقة باغنه بمالي حاليا واهل هنون لعبيدي في الحوض الشرقي، واهل بوسيف ولد محمد ازناقي المعروفين بفاته بالحوض الغربي، وأولاد لغويزي بمنطقة لعصابة[2]، وتأسست أولاد امبارك في القرن 17م، وبلغت أوج قوتها في الحوض وامتد نفوذها من اقاصيه شرقا الى الرقيبة غربا في موريتانيا وخاي والنوارة وإقليم باغنه في بلاد مالي[3]، واشتهر أولاد مبارك بالقوة والاباء والشجاعة والكبرياء، ومن اشهر سلاطينهم جنون لعبيدي ولد محمد ازناقي، وذريته من ابنتي امير ادوعيش محمد بن خونه، العالية واختها عيشة، وبلغ السلطان

[1] –محمد المحجوب ولد بيه، موريتانيا جذور وجسور، ط1، مكتبة القرنين 21/15 للنشر والتوزيع، انواكشوط، موريتانيا، 2016، ص142.

[2] –بن عبدالوهاب الناصري، الحسوة البيسانية في علم الأنساب الحسانية، مصدر سابق، ص87.

[3] –ولد محمد الهادي، موريتانيا عبر العصور، ص149

هنون أوج قوته بعد انتصاره في معركة كساري، سنة1124هـ/1711م، ثأر لابنه ديد من اخواله أولاد بوفايده المنتمين الى أولاد داود امحمد وبتحريض من زوجته المنتمية اليهم والتي اشتهرت نياحتها على ولدها.

لعب سلاطين أولاد امبارك دورا تاريخيا في تأسيس وتطوير الموسيقى والشعر الشعبي الموريتانيين، لما ابدع في عهدهم من موسيقى ومن شعر للاشادة ببطولاتهم وبقبيلتهم وابطالها، وعانى أولاد مبارك من حروب بين فصائلهم المختلفة انهكتهم كما انهكتهم الحروب العديدة بينهم وقبائل أخرى وبينهم والحاج عمر تال الفوتي، ولم يكن قد بقي لامارة أولاد امبارك ولا للفروع المؤسسة لها نفوذ يذكر زمن احتلال الحوض واخضاعه للوصاية بموجب اتفاقية وقعت بين بعض وجهائه وفرنسا بمدينة ولاتة يناير سنة 1912م.

هـ–إمارة إدوعيش:

دأب البعض على القول إدوعيش زوايا وعرب، والمقصود بالعرب منهم تلك القبائل التي حملت السلاح وحاربت واقامت الامارة، وتتألف إدوعيش أساساً من ثلاث مجموعات كبرى تتفرع منها قبائل كثيرة هي الانباط، أوديكة، اعل انتوفه، والجد الجامع لهذه القبائل هو عثمان المنحدر من سلالة أمير الحق يحي بن عمر اللمتوني، وقد اعطى هذا النسب المرابطي لهذه الامارة مكانة خاصة، وكان نفوذ ادوعيش يمتد من نهر السنغال جنوباً وحتى آدرار شمالا ومن الحوض في الجنوب الشرقي الى لبراكنة غربا، تأسست الامارة بعد كثير من الحروب والتحالفات على النفوذ والسيادة. وكانت أغلب حروب إدوعيش وتحالفاتهم ضد أولاد امبارك.

أسس ادو عيش إمارتهم في القرن 17م، وتوطدت بعد انتصارهم في حصار احنيكات بغداده، الذي فرضته عليهم قبائل المغافرة سنة 1778م، ومن أشهر أمراء إدوعيش، أعمر ولد امحمد بن بنيوق الملقب خونة الذي شارك في معركة أم عبانة ضد أولاد ادليم متحالفا مع أولاد امبارك سنة1107هـ/1695م ، ومنهم حفيده الذي وطد الامارة في القرن 18 محمد شين ولد بكار ولد اعمر (1761–1788) وشيخ المجاهدين الأمير بكار ولد اسويد احمد وهو اطولهم حكماً إذ امتد في الإمارة من سنة 1843 وحتى استشهاده في الأول من ابريل سنة 1905م.

ورغم ما عقدته إدوعيش من اتفاقيات سلام وتجارة مع الفرنسيين على النهر، إلا أن ذلك لم يمنعهم من مقاومة الاستعمار، وقد سعى الأمير بكار الى التنسيق مع إمارة لبراكنة في مقاومة المستعمر وفي العمل لتعبئة جميع المناطق وانشاء قيادة عامة وموحدة للمقاومة.

و–إمارة مشظوف:

ينحدر مشظوف من مسوفة، إحدى الاتحادات الصنهاجية الكبرى التي شكلت دعائم الدولة المرابطية وساهمت في نشر الإسلام وتجارة القوافل، ويعود الفضل اليها في تأسيس معظم المدن التاريخية في موريتانيا، ويعود تكوين إمارة مشظوف الى انقسام امارة ادوعيش نتيجة لقانون الاتحاد والانشطار الذي حكم المدن والقبائل الكبرى في تاريخ موريتانيا، وطبقاً لهذا القانون فإن عشائر ادوعيش لما ضاقت بها مواردها المحلية أصبح تاثير المراكز التجارية عليها أكبر وصارت فروعها القوية تتطلع الى الانتشار جنوباً للاقتراب من هذه المراكز والمتاجرة فيها باستقلال وحرية. وكان التجار الفرنسيون الذين يفضلون التعامل مع قوى متعددة ومتنافسة يشجعون هذا التوجه. ولعل هذا العامل الاقتصادي أهم العوامل التي أدت الى توجه مشظوف للحوض.

انسحب مشظوف الى الحوض بقيادة المختار ولد امحيميد وأسسوا امارتهم في منتصف القرن 19م، في وقت أصبحت فيه إمارة أولاد امبارك على وشك الانهيار، وخاض مشظوف حروبا عديدة مع مسلحين من الشمال والشرق، ومع جيوش الحاج عمر الفوتي للسيطرة على مجالهم الجديد. وبلغت إمارة مشظوف من العظمة والقوة والثراء وكثرة الخيل والابل والاغنام حداً لم تبلغه أي إمارة أخرى[1].

ويعتبر البعض هذه الامارة امتدادا بشريا وجغرافيا وتجاريا وثقافيا مستقلا لإمارة تكانت لشدة ما ظل يطبع العلاقة بين الامارتين من علاقة خاصة.

2–خصائص الإمارات الموريتانية وعلاقاها:

إنّ مسارات كل هذه الامرات متشابهة رغم اختلاف تواريخ قيامها فنظام الحكم تتداوله عائلة واحدة بينها حسب التقاليد دون الرجوع الى دستور متفق عليه، او قوانين مكتوبة من سلطة معينة. وغالباً ما كان يتولى الحكم أكثر الرجال قوة ومن منهم أثبت شجاعة مشهودة في الحروب داخل القبيلة أو بينها وقبيلة أخرى، أو من شهد له بالرزانة والحكمة، ولقد عرفت كل هذه الامارات فترات من الازدهار كما عرفت فترات من الانحطاط وعدم الامن.

وكان التجار الأوروبيون قبل الاحتلال الفرنسي قد شجعوا التنافس والصراع داخل العائلات الأميرية عن طريق اتصالاتهم وبعثاتهم. كما خلقوا خلافات بين مختلف الامارات باتباع أساليب مادية ونفسية مؤثرة،

[1] – Marty Paul, op.cit, p125

منها تقديم الهدايا وإثارة الخلافات والنعرات العصبية، وأوضحت تقارير كوبولاني في خلافه مع التجار الفرنسيين في أندر المقاصد السيئة لهؤلاء التجار في تعاملهم مع الموريتانيين، وما كانوا يسعون اليه من امتصاص خيراتهم وإشعال الحروب بينهم وتشجيعهم على تجارة الرقيق معهم ليستخدمهم هؤلاء التجار في مزارعهم وورشاتهم[1].

ساهمت هذه السياسة الاستعمارية في إضعاف الامارات الموريتانية وفي زعزعة الامن وانتشار الغارات والاعتداء على الممتلكات فضعف المجتمع وازدهر التباهي المفرط بالأنساب والخصوصيات حتى نادى عديد من الحكماء بضرورة مواجهة شاملة وجوهرية لجميع مظاهر الفوضى والفساد، ومن أشهر من حاولوا ان يتجاوزوا بالمجتمع النظام الاميري الذي كان لا يتعدى الحفاظ على سيادة كل امارة على المجال الجغرافي المعترف لها به عرفيا ونادوا بضرورة كيان وطني الشيخ محمد المامي ولد البخاري في قصيدته الدلفينية، والشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيديا في رائيته المشهورة[2].

وقد أدرك الامراء خلال القرن 19 مدى خطورة الوضع العام في البلاد وضرورة تغييره، وان لم يدفعهم ذلك الى وحدة اماراتهم وإقامة دولة، فإن كل واحد منهم بذل جهدا مستقلا في بسط العدالة وسيادة الامن في امارته، ولعل هذه الخطوات الإصلاحية والرغبة الشاملة فيها عند الامراء وأصحاب الرأي وعامة الناس كانت ستحدث تحولات في كافة المجالات تفضي الى شكل جديد من الحكم أكثر تطورا، فإما إمارات أفضل تنظيما واقرب الى عصرها، أو نظام يوحد البلاد تحت علم واحد استجابة للمصالح العامة. ولكن الظاهرة الاستعمارية التي ستؤول الى احتلال البلاد عطلت ذلك المسار.

[1] -Coppolani Xavier, Mauritanie Saharienne (Novembre 1903 à Mai 1904), I 'Harmattan, Paris, 1999, P35.

[2] -محمد المحجوب ولد بيه، المرجع السابق، ص151.

الدرس الثالث عشر: القوافل والطرق التجارية في موريتانيا الحديثة.

تمهيد:

مثلت تجارة القوافل أحد أبرز جوانب النشاط الاقتصادي للقصور والحواضر الموريتانية، وقد انعكست شدة ارتباطها بهذا النشاط ان أصبحت تقوم وتسقط بفضله، فاين

1-تنظيم تجارة القوافل:

كان يقف وراء تنظيم تجارة القوافل رجال اثرياء، ويبدو ان التجارة عبر الصحراء الغربية ظلت تجارة افراد ولم تصبح تجارة دولة الا مع بسط المخزن نفوذه مطلع القرن 10هـ/16م، على تنبكتو في عهد السعديين من اجل ضبطه تدفق الذهب منها عبر المجاري الصحراوية، غير ان قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط لم تفقد دورها في التبادل التجاري بين الشمال والجنوب بحكم موقعها على المسالك الرابطة بين المنطقتين ومراقبتها لمناجم الملح الصحراوي الذي يمثل اهم سلع المبادلة بالذهب السوداني.

أ-شبكات التجارة عبر الصحراء:

تمثل الشبكات التجارية عبر الصحراء العنصر الأبرز في تنظيم تجارة القوافل، ورغم ان المصادر لا تمدنا بكثير من المعلومات عن الشبكات التي كانت قائمة بين المغرب وبلاد السودان، بيد ان معاملات تجارة القوافل عبر الصحراء كانت حاضرة ضمن بعض النوازل الواردة الواردة الى الفقهاء، حيث شغلت الأخيرة حيزا هاما من نوازل فقهاء بلاد شنقيط، خصوصا منها المتعلقة بفقه المعاملات التجارية[1].

ويلاحظ من خلال تتبع حركة التجارة عبر الصحراء أن العامل الديني قد لعب دوراً مهماً في خلق شبكات تجارة القوافل عبر التاريخ بهذا الجزء من الصحراء، ولعل اول شبكة يمكن الوقوف على ذكر لها هي شبكة التجار الخوارج عبر تاهرت، التي كانت لها روابط مع غانة من حواضر الجيل الأول، في حين أنّ الشبكة الثانية التي وقفنا على ذكرها هي شبكة أبناء المقري، التي كانت تعمل ما بين تلمسان وسجلماسة وولاته،

[1] -برت ميتشل، فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجارة عبر الصحراء، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس 1981، ص61-73.

وان كان ينظر البعض الى بعدها عن التاثير الديني، فقد أشار البعض الاخر الى احتمال وجود روابط بين أسرة المقري مع احفاد ومريدي أبو مدين محمد شعيب (ت594هـ/1198)، ومحاولة توظيف ذلك في تجارتهم[1].

وتشكل دار ايليغ ثاني شبكة تجارية تركت بعض الأثر لدورها في التجارة عبر الصحراء، وقد مارست هذه الزاوية الدينية نشاطاً تجاريا مهماً، وتظهر بعض الوثائق علاقات تجارية منتظمة بين بين تازروالت بمنطقة سوس جنوب المغرب الأقصى وقصر تيشيت، ورغم تأخر تلك الوثائق باعتبار انها تغطي السنوات مابين 1850-1875، إلّا أنها كشفت لنا عن نموذج لشبكات التجارة بين اطراف الصحراء، ويبدو ان النجاح التجاري لدار ايليغ لا ينبع فحسب من كونها الوحيدة التي تحتكر التجارة خلال القرن 13هـ/19م مع الصحراء الغربية وبلاد السودان، بل بفعل تبعيتها للإشراف ، وهو عامل ديني وظف بقوة لتأثيره في توفير الحماية لشبكات التجارة، فالشرف والمنزلة الدينية كانت بمثابة حرز وحماية للقوافل العابرة للصحراء[2].

ولذلك فقد استمر تلازم العامل الديني مع نشاط التجارة عبر الصحراء بوصفهما عنصرين مؤثرين في نجاح شبكات التجارة بهذه المنطقة، كما نرصد أيضا تلازم هذين العاملين من خلال نشاط قبيلة كنتة ودورها في نشر الطريقة القادرية بالصحراء الغربية وبلاد السودان، مما سمح لهذه القبيلة بخلق شبكة تجارية واسعة عبر الصحراء، اعتمدت على انتشار مريديها من توات شمالا مرورا بتيرس الزمور وآدرار وموريتانيا وتكانت وازواد، وصولا الى ضفاف نهر النيجر جنوباً، وقد تعاظم دور هذه الشركة مع تزايد نفوذ بطن كنتة المقيمين بودان منذ القرن 12هـ/18م. وهكذا استطاعت قبيلة كنتة خلق شبكة فعلية لتجارة القوافل ربطت شمال الصحراء بإفريقيا جنوب الصحراء، بالاعتماد على نفوذ روحي مكنها من السيطرة على الملح الذي يمثل اهم سلع التجارة الصحراوية[3].

ب-الوكلاء والوسطاء في تجارة القوافل:

عن اتساع مساحة الصحراء وترامي أطرافها جعل من الضروري لكل تاجر من الشمال لديه مصالح في تجارة القوافل اعتماد وكلاء في المناطق البعيدة، يمثلونه ويرعون مصالحه، وينال أولئك الوكلاء هبات وعطايا

[1] -احمد مولود ولد ايده، الصحراء الكبرى مدن وقصور. المرجع السابق، ج2، ص09.

[2] -Abittbol.M , Le Maroc et le commerce transsaharien, op.cit,p08

[3] -احمد مولود ولد ايده، المرجع السابق، ص11.

من موكليهم الشماليين، كم أنهم يتصرفون في جزء من الأرباح، ويمكننا التمييز بين صنفين من الوكلاء، وكلاء داخليين فيما بين قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط من جهة، ووكلاء اقليميون بين الشمال والجنوب.

كما شكل الوسطاء التجاريون مكونة أساسية في المبادلات التجارية بين أطراف الصحراء، ويتضح أن افراد من المجموعات اليهودية اضطلعت بأهم أدوار الوساطة التجارية، فلا تزال الذاكرة بودان تحتفظ بذكرى وجود حي خاص باليهود بالموضع المعروف بالملاحة بالشطر الشمالي الغربي للقصر خلال القرن 17م وحتى القرن 19م، ويرجع ريموند موني التجارة اليهودية عبر الصحراء الى العصر الوسيط، بينما يرى البعض ان انسياب الوسطاء التجاريين اليهود الى هذا الجزء من الصحراء، انه ربما يكون معاصراً للتواجد الأوروبي على الشواطئ الأطلسية ابتداء من القرن 11هـ/17م، ومهما يكن من امر فإن دور اليهود كوسطاء بهذه الحواضر لم يتضح إلا في القرن 12هـ/18م مع تطور التجارة الأطلسية، فقد كانوا يسيطرون على 3/1 تجارة ريش النعام الصحراوي الموجه الى أوروبا عبر ميناء الصويرة المغربي[1].

2-مسالك وطرق التجارة الصحراوية:

ثمة مجموعة من العوامل الطبيعية تتحكم في مسار القوافل عبر الصحراء، مثل اتجاه الأودية، ومواطن الماء، هذا فضلا عن ابتعادها قدر المستطاع عن المناطق الجبلية والصخرية التي تعرقل سلاسة حركة الإبل، ونتيجة لذلك فإن مسار القوافل يخضع للتوفيق بين عدة عناصر، أهمها البحث عن أقصر الطرق، والحاجة الماسة للتزود بالمياه، وهناك عوامل ترتبط بالنفوذ السياسي وتجنب المسالك غير الآمنة.

أ-الطرق والمسالك:

-المسلك الشرقي: يمثل هذا المسلك نقطة الاتصال الأولى بين منطقة جنوب الصحراء مع شمال افريقيا، وهو سابق للقرن 2هـ/08م، وقد ظل هذا المسلك يحكم المبادلات التجارية بين الواحات الافريقية والصحراوية (قصطيلية ووارجلان) مع تادمكت وقاوه وغانه حتى القرن 05هـ/11م، ومع بسط المرابطين نفوذهم على المغرب الأقصى اختل توازن التجارة على هذا المسلك الذي فقد مكانته لما يقارب الثلاثة قرون، غير انه اخذ يسترجع مكانته ابتداء من ق 08هـ/14م.

[1] -نفسه، ص14.

-المسلك الغربي: تأسس هذا المسلك على أنقاض الطريق اللمتوني العتيق، ويوضح لنا البكري مسار المسلك الغربي الذي يمتد من درعة العليا ويعرج على ايجلي واغمات واناجيم وتوجنيننووارن وعقلة النمادي فأودغست، هذا المسلك يصفة ريموند موني بالطريق الرئيسي، ويشدد على ان تراجعه كان إثر خراب اودغست، ويعتقد جان دوفيس أنّ ولاته حلت على هذا المسلك محل اداغست، وقد حلت تنبكتو محل ولاته خلال القرن 09هـ/15م، كاهم حاضرة تجارية بالمنطقة غير انه بعد انحسار مسلك تنبكتو وتغازه ودرعه، بدا المسلك الغربي يستعيد نشاطه بعناية من الدولة العلوية في المغرب من خلال اضطلاع قبيلة تجكانت بدور مهم في تجارة القوافل.

-المسلك الشاطئي: يربط هذا المسلك حسب ما ذكره البكري بين نول لمطه شمالا ومنجم ملح أوليل جنوباً، مسار هذا المسلك يتدرج على امتداد شواطئ المحيط الأطلسي، ويعتقد ريموند موني أن هذا الطريق لم تكن له أهمية في القديم، بل انه استمد أهميته ابتداء من الفترة الوسيطة وكانت قبيلة جدالة الصنهاجية تتحكم في هذا الطريق، غير انه خلال القرن 11هـ/17م أعطى افتتاح ميناء الصويرة (Mogador) خلال النصف الأول من القرن 18م دفعا جديداً للتجارة الصحراوية على المسلك الشاطئي.

3-سلع التبادل التجاري:

أ-اهم سلع الجنوب: إضافة الى تزودها بالسلع السودانية وفي مقدمتها الذهب والعبيد والعاج، كانت القوافل تتجهز أيضا بسلع الصحراء المطلوبة بالسودان مثل الملح وريش النعام فضلا عن بعض السلع الأخرى الثانوية

-الذهب: ساهم المرابطون بشكل جلي في تجارة الذهب حتى أصبح خالدا في ذاكرة بعض المواقع بهذا الجزء من الصحراء، وغن كانت إشارات بعض المصادر الوسيطة لا تخل من مبالغة، ورغم شح إشارات المصادر الى كميات الذهب المصدرة الى الشمال إلا ان ريمون موني يقدر عددها بستة أطنان، ويستشف من عدم إشارة وثائق المعاملات التجارية لدار ايليغ الى الذهب ضمن سلع المبادلات التجارية عبر الصحراء بين المغرب وبلاد السودان ان ذهب السودان لم يعد يمثل خلال القرن 19 سوى طيف ذكرى، والواقع ان بداية من عهد السلطان العلوي زيدان بن احمد المنصور الذهبي الذي حكم المغرب الأقصى(1603-1618م) بدأت كميات الذهب في تناقص بشكل ملحوظ، ان لم تنقرض تماماً، غير ان ما يمكن ملاحظته في هذا السياق

هو ان التواجد التجاري الأوروبي على السواحل الأطلسية، مثّل أحد أهم أسباب تناقص المعدن النفيس، إذ كانت السفن الأوروبية تجتذب نصيب الأسد من كميات الذهب القليلة المتداولة من بالمنطقة.

–الملح: مثّل الملح ثروة أساسية لدى القبائل الصحراوية بهذا المجال، وقد أشار أبو حامد الغرناطي الى ان القوافل لتي كانت تحمل حجارة الملح الى بلاد السودان، فإذا وصلوا الى غانه باعوا الملح وزنا بوزن بالذهب، وقد بادل الإنسان الصحراوي الملح بما يحتاجه من سلع أساسية وكمالية، ويروي ابن الأمين الشنقيطي ان العبد الرقيق كان يباع بمقدار حذاءه من الملح يجعل تحت قدميه ويقطع منه مقدار نعل فيكون له قيمة وثمناً، غير ان قيمة هذه المادة تغيرت في القرون الأخيرة حتى اصبح سعر (عديلة) الملح عشرة امداد من الحبوب، وهو ثمن بخس إذا ما قورن بأسعر الملح خلال العهد الوسيط.

–الرقيق: شكلت تجارة الرقيق واحدة من اهم سلع الجنوب الموجهة الى السوق الشمالي منذ العهد الوسيط، غير ان تجارة النخاسة عرفت تراجعا ملحوظا ابتداء من القرن 13هـ/19م، فقد بلغ عدد الارقاء المجلوبين الى المغرب الأقصى عبر الصحراء خلال القرن 12هـ/18م ما بين ثلاثة الى أربعة الاف، بينما اشارت وثائق إيليغ، إلى أن تاجرا من قبيلة تجكانت كان قد جلب الى تازروالت ما بين سنوات 1853-1867 تسعة عشر رقيق م بينهم ثلاثة ذكور فقط والبقية من الإماء، ويعكس الاقبال على اقتناء الإماء الإناث اكثر من العبيد الذكور احد جوانب تعاطي الثقافة الإسلامية مع مسالة الرق.

–العاج: شكلت هذه المادة أحد اهم سلع التجارة الجنوبية، ورغم عدم توظيف العاج محلياً في منطقتي الصحراء والساحل، إلا انه كان يوظف بالشمال في صناعات فنية كالمنابر للجوامع الفخمة، ويبدو ان الطلب بدا يتزايد على هذه السلعة منذ العهد الوسيط برغم عدم إشارة المصادر الوسيطة الى العاج ضمن سلع التجارة الصحراوية، وقد تزايد الطلب على هذه المادة خلال القرن 17م مع ربط التجارة الصحراوية بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق ميناء الصويرة، وقد اضطلع اليهود المغاربة بدور وسطاء تجاريين لتصدير العاج الى أوروبا

–ريش النعام: كانت الصحراء الغربية من بين مواطن عيش النعام فقد أشار ابن سعيد الى كثرة بيضه، كما أن وفرته استرعت انتباه المستكشف كاداموستو منتصف القرن 09هـ/15م وبعده أشار اكثر من مصدر أوروبي خلال القرن 16م الى استهلاك لحومها بمنطقة آدرار، غير أنّ النعام تناقص الطلب التجاري الأوروبي على ريشه خلال القرن 12هـ/18م، وقد شكل ريش النعام خلال القرنين 18 و19م موضة وحلية لتقليعات

سيدات الطبقة المترفة بأوروبا الغربية، كما أنه استخدم أيضا لتزيين الاوسمة والنياشين، فقد كان أصحاب الرتب العالية من الجيش يوسمون بريش نعام أبيض.

-الصمغ العربي: يذهب بعض الدارسين الى أن هذه المادة دخلت المبادلات التجارية عبر الصحراء ابتداء من القرن 12هـ/ 18م، غير ان هناك إشارة لدى البكري انه على مشارف اودغست كانت توجد أشجار الصمغ الذي جلب الى الاندلس يصمغ بها الديباج[1]، وان كان حجم مبادلات الصمغ في تلك الفترة متواضعاً، إلا ان كميات الصمغ المصدرة كانت في تزايد مطرد، خصوصا خلال القرن 12هـ/18م مع ازدهار التجارة الأوروبية عبر السواحل.

ب-أهم سلع الشمال:

كانت القوافل الوافدة من الشمال تتجهز الى الصحراء وبلاد السودان بالسلع المغربية والمتوسطية، من اقمشة صوفية وقطنية وحريرية فضلا عن الفرش والزرابي والاغطية، والكتب والخيول والتمور وغيرها

-القماش والمنسوجات: احتلت المنسوجات أهمية بارزة في المبادلات التجارية، ويشير بعض الباحثين الى ان اقمشة أوروبا كان يجلبها تجار البربر الى الصحراء وبلاد السودان، كما كانت الشاشية تدخل ضمن الواردات الشمالية إضافة الى الاقمشة الحريرية ذات الاحزمة القطنية.

-الكتب: كانت مخطوطات وكتب الثقافة العربية الإسلامية من اهم سلع التجارة الصحراوية إضافة الى الأوراق والاقلام التي ساعدت على إعادة انتاج هذه الثقافة فقد ذكر حسن الوزان ان المخطوطات الواردة من بلاد المغرب كثيرة وتدر أرباحا تفوق سائر أرباح البضائع الأخرى[2]، ولعل ذلك ما يفسر الكم الهائل الذي وصل الينا من بقايا المخطوطات العربية بتنبكتو وولاته وتيشيت وشنقيط وودان والتي تشكل أبرز جوانب الإرث الحضاري لهذه الحواضر الصحراوية.

-الخيول: شكلت الخيول واحدة من اهم سلع المقايضة في التجارة الصحراوية رغم عدم ملائمة هذا الحيوان لخصائص التضاريس الرملية والصخرية بهذا المجال، لذلك ظلت الابل وسيلة النقل المفضلة لدى الصحراويين، في حين احتلت الخيل منزلة خاصة لدى شيوخ القبائل السودانية، باعتبارها تمثل مظهرا من مظاهر الفخامة

[1] -البكري، المسالك والممالك، ص158.

[2] -الوزان، وصف افريقيا، ج2، المصدر السابق، ص167.

والزعامة، وقد ذكر الفيس كاداموستو ان الخيول شكلت تجارة مربحة باعتبار ان التجار البربر كانوا يقايضون الحصان الواحد للسودانيين بما يتراوح ما بين عشرة الى خمسة عشر عبداً، ويقدر ريمون موني ثمن الحصان في التجارة الصحراوية خلال الفترة الحديثة بخمسة اضعاف سعره في العصر الوسيط، ويعود ذلك ربما لندرة الخيول.

-التمور: رغم وجود واحات النخيل بجل هذه القصور غير ان منتجات الواحات بقيت من اهم السلع الوافدة الى هذه المنطقة خصوصا تمور وادي مزاب على امتداد العهد الوسيط، وفي وقت لاحق لترابط هذه القصور الموريتانية بعلاقات مع تافيلالت وتوات، ومع مناطق أخرى.

4- عوامل اندثار تجارة القوافل:

اذا كانت التجارة الصحراوية قد شكلت ابرز عناصر رخاء وازدهار الحواضر الموريتانية فإن ثالوث الحروب الاهلية والغزو والكوارث الطبيعية كان له وقع سيئ على الحياة والتجارة بها، إذ دخلت خلال القرنين 17 و18 دوامة من الحروب الاهلية، وتزايدت وتيرة غزو القبائل المحاربة لها وقطعها طرق القوافل المتجهة اليها فضلا عما حمله اليها القرن 19من كوارث بيئية متلاحقة جعلتها ترزخ تحت وطأة سلسلة من المجاعات والاوبئة، كل هذه العوامل كانت بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، وجعلت من الصعب عودة التجارة الى سابق عهدها بهذه الحواضر، خصوصا اذا علمنا انها ظلت تحافظ ولقرون على مقومات بقاء هشة، في وجه منافسة عتيدة للتجارة الأطلسية.

مثلت التجارة اهم أسباب رخاء الحواضر الموريتانية فقد ساهمت تجارة القوافل في انتشار مؤثرات متنوعة مست جوانب مختلفة من نمط عيش تلك الحواضر.

الدرس الرابع عشر: المستكشفون الأوربيون في موريتانيا

تمهيد:

نظرا لأهمية المنطقة الاقتصادية والاستراتيجية إضافة الى السعي في كشف مجاهلها كل ذلك دفع الجمعيات الكشفية الأوروبية تخصيص رحلات كشفية الى بلاد البيضان طمعا في كشف خيراتها وتمهيدا لغزوها والسيطرة عليها. وقد عمل هؤلاء الرحالة على مخالطة الناس بغية وصف نمط حياتهم والوقائع اليومية لمعيشتهم وهو ما فرض اعتماد ما كتبوه مصادر تاريخية واجتماعية لهذا الفضاء الصحراوي

1-الرحلات الى المنطقة قبل مجيء الفرنسيين:

أ-الرحالة العرب في العصور الوسطى: مثلت كتب الرحالين العرب والمسلمين في العصور الوسطى مصدرا أساسيا من مصادر تلك الفترة وخاصة بالنسبة للصحراء الكبرى وبلاد السودان، وينوه موني بالمصادر التي خلفها هؤلاء الرحالة معترفا بريادتهم بقوله " بيد ان المصادر العربية المكتوبة حول افريقيا المدارية والغربية ذات أهمية جوهرية لان العرب بخلاف القدماء الأوروبيين في العصور الوسطى كانت لهم معرفة عيانية بالمناطق الواقعة جنوب الصحراء"[1]، ويتناول البكري علاقات اودغست ومبادلاتها التجارية مع الصحراء وبلاد السودان مؤكدا على ان ذهب اودغست اجود ذهب اهل الأرض وأصحه"[2].

وقد تضمنت رحلة بن بطوطة معلومات تفصيلية عن مدن المنطقة وسكانها، وعن مدينة ولاتة يقول "وصلنا ايوالاتن في غرة شهر ربيع الأول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة وهي اول عمالة السودان ونائب السلطان بها فربا حسين وفربا معناه النائب"[3].

وقد زودنا الوزان في كتابه وصف افريقيا بمعلومات لا تقل أهمية عن معلومات سابقيه سواء تعلقت بالمدن او السكان ونشاطاتهم وتقاليدهم، ويذكر الرحالة وجود الكثير من الحيوانات المتوحشة والثعابين السامة

---

[1] -Mauny (R), op.cit., P24.

[2] -البكري، المصدر السابق، ص159.

[3] -ابن بطوطة، المصدر السابق، ص660.

بهذه الصحراء، ويتحدث عن ولاته قائلاً " عن هذه المملكة صغيرة واوضاعها متوسطة مقارنة مع الممالك السودانية الأخرى فهي لا تمثل سوى ثلاث قرى كبيرة أكواخها متناثرة في بعص الواحات"[1]

ب–البرتغاليون والسبق الى سواحل المنطقة:

بدأت حركة الكشوفات الجغرافية الى المنطقة منذ عهد الأمير هنري الملاح[2]، فقد شهدت أوروبا تنافسا كبيرا مجال الملاحة البحرية والتسابق نحو كشف المزيد من المناطق الجغرافية، فمنذ نهاية القرن الثالث عشر الميلادي بدأ الملاحون الأوروبيون وخاصة منهم الاسبان والبرتغاليين القيام بزيارات للسواحل الافريقية المقابلة لجزر الكناري.

وابتداء من مطلع القرن 15م، أظهر البرتغاليون تفوقا على غيرهم من الأوروبيين في مجال اكتشاف المنطقة، فتعددت الرحلات البرتغالية الى سواحل الصحراء الأطلسية، وبتشجيع من هنري الملاح بلغ عدد تلك الرحلات ما بين 1441–1446م خمس عشرة حملة بحرية اسفرت عن اكتشاف الراس الأبيض 1442، وجزيرة آركين[3] 1443. والتي احتلها البرتغاليون بعد ثلاث سنوات، واستمرت الرحلات الاستكشافية البرتغالية الى السواحل الموريتانية، ففي مطلع القرن 16م يطلعنا فالانتيم فرناندیس عن أسماء القبائل الحسانية الظاعنة في نهاية القرن 15م بالمجال البيضاني وهي من الغرب الى الشرق الودايه، البرابيش، الرحامنه واولاد عمر مشيرا الى الحروب المستمرة بين لودايه والبرابيش، وقد وصف هذا المستكشف البرتغالي جزيرة اركين وضواحيها وتحدث عن تجارة البرتغاليين مع البيضان.

ذلك فإن شهادات المستكشفين البرتغاليين الذين زاروا الشواطئ الموريتانية والمنطقة الواقعة بين اركين وودان أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين تسمح بامتلاك تصور ولو غائم عن سكان تلك المناطق البيضانيين ومجالهم الجغرافي.

2–الرحلات الفرنسية قبل القرن التاسع عشر:

---

[1] –الوزان، المصدر السابق، ص463.

[2] –هنري الملاح (1394–1460) أحد الامراء البرتغاليين، اشتهر بتشجيع الكشوفات الجغرافية خاصة السواحل الافريقية، وينقل عنه انه لم يركب البحر إلا نادراً.

[3] –جزيرة تقع بالساحل الأطلسي الموريتاني على بعد مائة وثلاثين كيلومتر الى الجنوب من نواذيبو، ويبلغ طول هذه الجزيرة حوالي 7كلم وعرضها حوالي 4كلم، وقد تنافست أمم أوروبية كثيرة خلال القرون الماضية للسيطرة عليها، والتي تعد مركزا للتبادل التجاري مع البيضان.

أ–بدايات الوجود الفرنسي: بدا الوجود الفرنسي الفعلي بالمنطقة منذ الربع الثاني من القرن السابع عشر، حينما شجع الكاردينال ريشليو[1] الشركات التجارية الفرنسية سنة 1626م على التمركز في شبه جزيرة سان لوي السنغالية، ومن اهم تلك الشركات الشركة النورماندية لاستغلال تجارة السنغال.

وكان الهولنديون في تلك الفترة أصحاب السيادة في المنطقة بحكم سيطرتهم على مركزي اركين وروفيسك[2]، وجزيرة كوري[3]، وقد جعلتهم هذه السيطرة المتأتية من قوتهم البحرية يتحكمون في المناطق الواقعة بين آركين وروفيسك، مما مكنهم من استقطاب جل التجارة في تلك المناطق وبالتالي تفليس الشركة الفرنسية السالفة الذكر. وامام هذا الوضع اشتد الصراع الفرنسي الهولندي في المنطقة بين سنتي 1667–1678 انتهى باستيلاء الفرنسيين على آركين.

ويعد بول آمبير أول فرنسي يصل المجال الموريتاني، وذلك بعد ان نجا من غرق سفينته بالشواطئ الموريتانية سنة 1630، ووقع اسيرا في قبضة البيضان، وفي نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر بدأت أولى محاولات الفرنسيين الفعلية للوصول الى المجال الموريتاني او ملامسته على الأقل وذلك مع السيد دولاكروب وخاصة مع اندري برو، فالاول تجول في منطقة الساحل المحيطية وفي مصب نهر السنغال ونشرت رحلته تحت عنوان رحلة السيد دولاكروب الى الساحل الافريقي خلال 1685م، وقد تضمن معلومات مستفيضة عن تقاليد وعادات البيضان، وعلاقاتهم بالزنوج وعن التبادل التجاري بالمنطقة وخاصة مع تجارة الصمغ العربي، واما اندري برو فقد قام بمحاولات جدية لفرض وتعزيز الوجود الفرنسي في المنطقة، أثناء فترتي اقامته بالسنغال في نهاية القرن السابع عشر

ب–محاولات الاستئثار:

عرفت الرحلات الاستكشافية الغربية طفرة في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وعن أراضي البيضان تعرف الرحلات الفرنسية الى المنطقة قفزة كبيرة، ففي سنة 1785 وصل المنطقة اربع

---

[1] –الكاردينال ريشليو (1585–1642) رئيس وزراء لويس الثالث عشر، اشتهر بالصراع ضد البروتستانت والسعي الى اخضاع النبلاء وهو مؤسس الاكاديمية الفرنسية.

[2] –روفيسك، مركز تجاري سنغالي بالساحل الأطلسي يقع شرقي داكار على مقربة منه، وهو الان مدينة وميناء لتصدير الفستق، وقد تنافس الفرنسيون والهولنديون والانجليز خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للسيطرة على هذا المركز

[3] –جزيرة صغيرة بالساحل السنغالي تقع قبالة داكار احتلها الهولنديون سنة 1619م، وانتزعها منهم الفرنسيون سنة 1677، حيث أصبحت من اهم المراكز الفرنسية بسواحل افريقيا الغربية، اتخذت هذه الجزيرة مركزا لتجميع الزنوج قبل نقلهم ارقاء الى العالم الجديد

مستكشفين فرنسيين، ومع قبام الثورة الفرنسية 1789 ستتوقف ولو الى حين الرحلات الفرنسية نحو المنطقة جراء انهماك فرنسا في مشاكلها الخاصة، ولم تستأنف حتى سنة 1816ز

ورغم مجهودات الفرنسيين الهادفة الى اكتشاف المنطقة، فقد بقيت مغلقة امامهم، واقتصرت رحلاتهم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر عموماً على زيارة الهوامش، وخاصة منها الشاطئ الأطلسي وحوض نهر السنغال، ومرااكز التبادل النهرية. كما بقيت معلوماتهم سطحية وغير دقيقة تركز على تجارة الصمغ في غالب الأحيان، بل ان بعض رحالي القرن الثامن عشر ربما يكون قد اكتفى بتكرار واجترار المعطيات الواردة في الرحلات السابقة[1].

3–الفرنسيون داخل المجال البيضاني اثناء القرن التاسع عشر:

فور انتهاء الحروب النابوليونية استانف الفرنسيون مهماتهم الاستطلاعية نحو القارة الافريقية، ورأينا ان نقسم اكتشافات هذا القرن الى مراحل ثلاث:

أ–مرحلة المحاولات الفردية:

جرت معظمها اثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقام بها في الغالب الافراد المغامرون الذين تحركهم أسباب ومآرب شخصية، ولم تتجاوز هذه المحاولات الفردية على العموم الأطراف الهامشية الجنوبية للمجال الموريتاني، أي ضفة نهر السنغال والمناطق المحاذية لها، وكان اول مستطلعي القرن التاسع عشر الفرنسيين هو كاسبار تيودور موليين سنة 1816م، وبعد مرور بضع سنوات على زيارة الأخير يصل للمنطقة رحالة فرنسي آخر يدعى روني كايي "ولد كيجة"[2] في صيف 1824 الى منطقة لبراكنة ويقضي فيها حوالي تسعة اشهر، متنقلا بين مكان واخر متظاهر باعتناق الإسلام وساعيا الى تعلم اللغة العربية، ومبادئ الدين، وكل ذلك خدمة لمشروع ظل يراوده وهو الوصول الى تنبكتو، ويعتبر كايي ربما اول فرنسي يقيم طواعية بين صفوف القبائل البيضانية.

---

[1] –محمدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، منشورات معهد الدراسات الافريقية، الرباط، 2001، ص78.

[2] –نسج الخيال الشعبي حول شخصية روني كايي المعروف محليا ولد كيجة النصراني الكثير من الاساطير، منها مايتناول شخصيته الخارقة وطموحه الجامح الى ارتياد المجهول الذي دفعه الى ارسال مبعوثين يستطلعون له أعماق المحيط الأطلسي، فذهبوا مضرب مثل لمن لا يعود "امراسيل ولد كيجة"، ومن تلك الاساطير انه اتقن اللهجة المحلية حتى بات يقرض الشعر الشعبي، وبلغ في العلم بالشريعة مبلغاً امّ معه الناس مدة شهر رمضان قبل ان يودعهم مستشهدا بقول خليل "وبطلت باقتداء بمن بان كافراً"

وبعد كابي وصل موريتانيا جان فرانصوا كاي 1843، وهو اول من أطلق موريتانيا على سكان المنطقة البيضان. وفي السنة الموالية جاء دور رحالة آخر هو "آن رافنل"

ب–مرحلة الاستطلاع العسكري):1859–1862)

وترتبط هذه المرحلة بالجنرال فيدهرب الذي شغل منصب الوالي الفرنسي للسنغال في المرة الأولى ما بين 1854–1861، وانصبت مجهوداته على السعي لتغيير شروط وطرق التبادل مع السكان المحليين خاصة الترارزة القوة المهيمنة في المنطقة حينئذ، وقد وصف فيدرب بعيد وصوله الى السنغال تلك الهيمنة قائلا "ان الترارزة يضربون من حولنا طوقاً خانقاً" ولغنجاز تلك المهمة خاض فيدرب حروبا متعددة في المنطقة مكنته من تدعيم النفوذ الفرنسي وتوقيع اتفاقيات مع الزعامات المحلية تتنازل بموجبها عن الكثير من السلطة والصلاحيات التي كانت تمارسها في السابق.

ج–مرحلة الاكتشافات المتخصصة: (1880–1909م)

تمتد هذه المرحلة على مدى ثلاث عقود من الزمن، وتختلف عن سابقتيها ببروز الطابع السياسي جليا جراء السياسة الجديدة للدول الاستعمارية الأوروبية، وتبدأ هذه المرحلة برحلة بول صوليي سنة 1880، وتكتسي هذه الرحلة أهمية خاصة كونها جمعت بين حب المغامرة من قبل المستكشف ولحملها الطابع الرسمي باعتبار ان الحكومة الفرنسية قامت بتبني الرحالة واكتشافاته، أما ثاني مستكشف فهو صولير، وهو مختص بالشؤون الصحراوية، كلفته الحكومة الفرنسية سنة 1887م بمهمة في الجنوب المغربي وعلى السواحل الأطلسية الموريتانية فزار على الخصوص الراس الأبيض، وخليج وجزر آركين وتيدره وكيجي، ويعتبر صولير من أوائل من تفطن من الفرنسيين للثروة السمكية الهائلة للمنطقة فاقترح ضرورة استغلالها.

يعد هؤلاء المستكشفون وغيرهم الكثير أدوات تعريفية بالمنطقة ومصادر لا مناص عنها في تدوين التاريخ المحلي، وبالمقابل كانت سلاحا ذو حدين هيأت الظروف المناسبة للحملات العسكرية المباشرة، فشكلت بذلك مقدمة للفعل الاستعماري الذي حل بموريتانيا بداية من سنة 1903م.

خاتمة المطبوعة

من خلال هذه الملخصات الخاصة بدروس المادة نستخلص:

-لا غنى للباحث في تاريخ موريتانيا الحديث عن العودة الى الفترة الوسيطة لالتصاقها الوطيد بالفترة الحديثة حتى أنه ليتبين للباحث صعوبة التمييز بين الفترتين لغياب عوامل التحول ولعدم تأثر بلاد البيضان بكثير من المؤثرات التي عرفتها باقي المنطقة المغاربية.

-لا يمكن باي حال من الأحوال فصل موريتانيا عن جوارها المغاربي العربي تأثيرا وتأثراً، برغم طابع البداوة والصحراء الذي يغلب على جل مناطقها.

-تعددت مسميات موريتانيا عبر مراحل الفترة الحديثة، وذلك مرده الى خصوصية التكوين الاجتماعي للمنطقة خاصة منه الهجرات العربية

-كان لفسيفساء المجتمع الموريتاني ومراحل تكوينه أثر بالغ في رسم معالم هذه الفضاء اجتماعيا واقتصاديا وسياساً

-البنية الاجتماعية للمجتمع الموريتاني قامت على أساس وظيفي أكثر منه عرقي وانسابي

-كان لتجارة القوافل دور بارز في نشاة المدن والحواضر الموريتانية في الفترتين الوسيطة والحديثة

- ان كثرة الحروب وامتدادها لسنوات تعكس بجلاء غياب نظام سياسي مركزي لم تتمكن موريتانيا من رسم معالمه الا بمجيء المستعمر الفرنسي

-

الملاحـــــــــــق

الملحق رقم 101

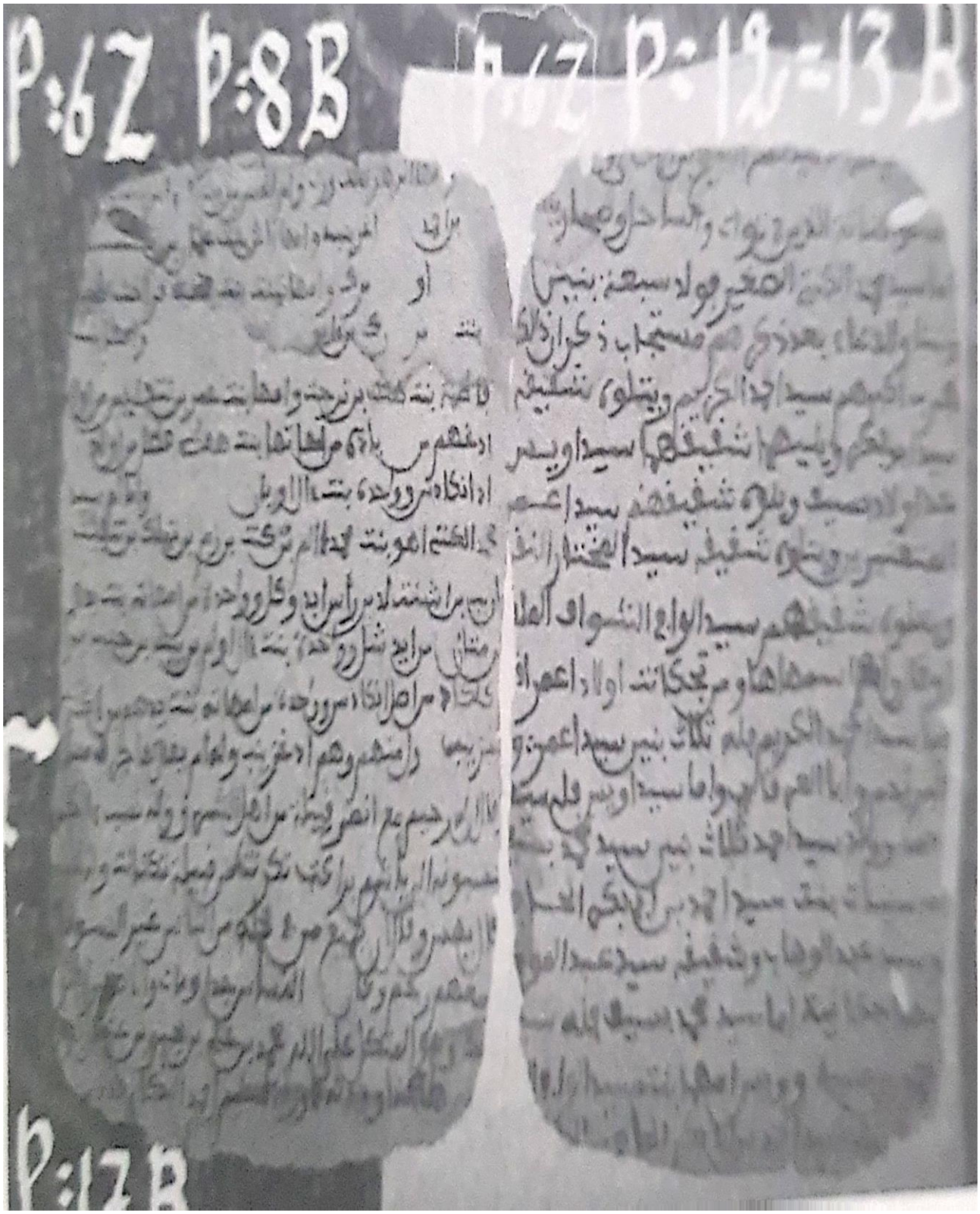

[1]–وثيقة الصلح على اثر انتهاء حرب شر بة 1778م.

الملحق رقم 02 [1]

[1] –خريطة لأهم الحواضر الموريتانية (الجيل الأول والثاني)

الملحق رقم 103[1]

[1]-خريطة توضح تطور سير طرق القوافل التجارية من والى بلاد شنقيط

الملحق رقم 104[1]

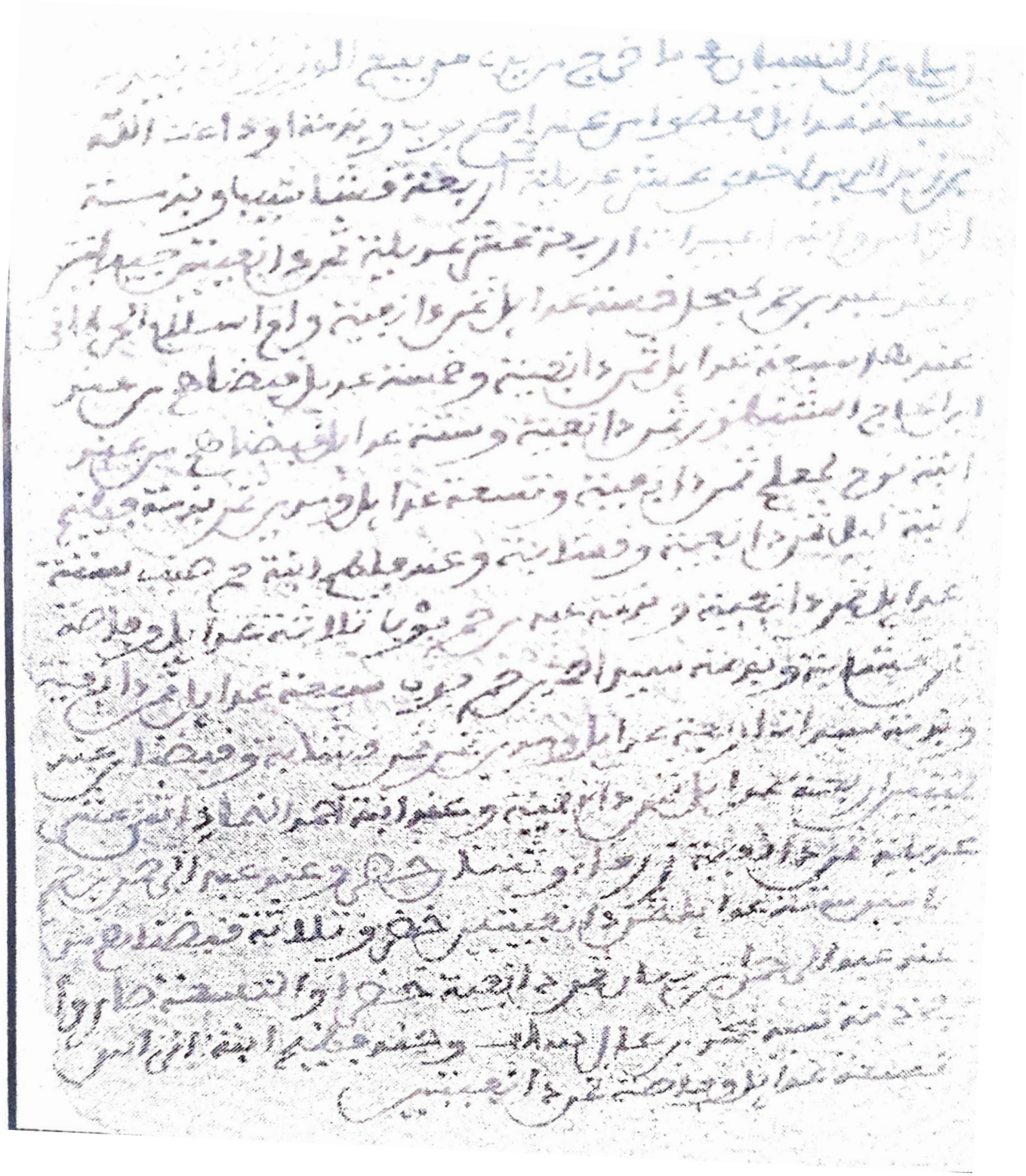

[1] – زمام عقد بيع لقافلة تجارية موريتانية

الملحق رقم 105[1]

مئذنة مسجد تيشيت

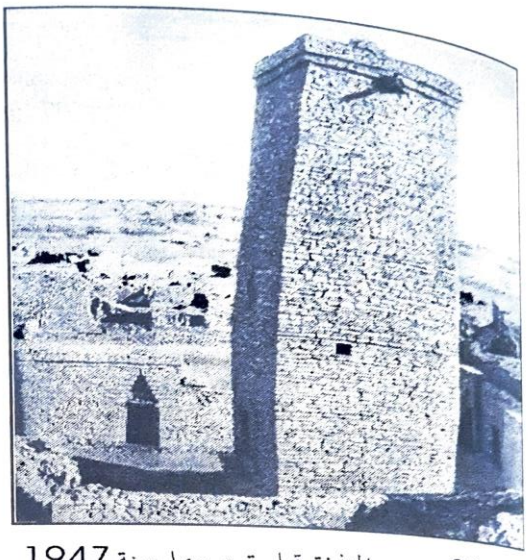

الشكل 33 تصدع المئذنة قبل ترميمها سنة 1947
نقلا عن دومنيك مونية

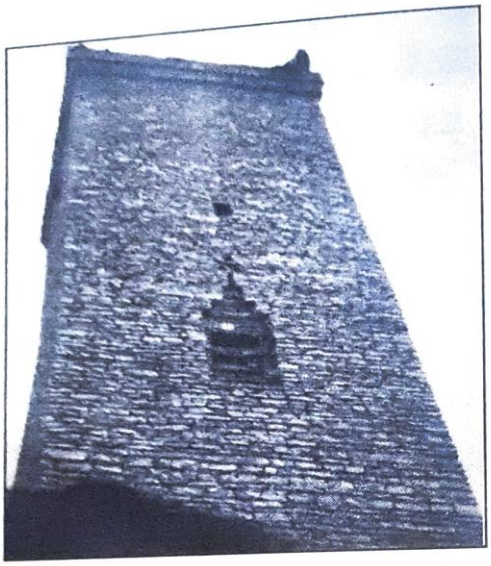

الشكل 34 الجدار الغربي للمئذنة المحلى بزخرفة

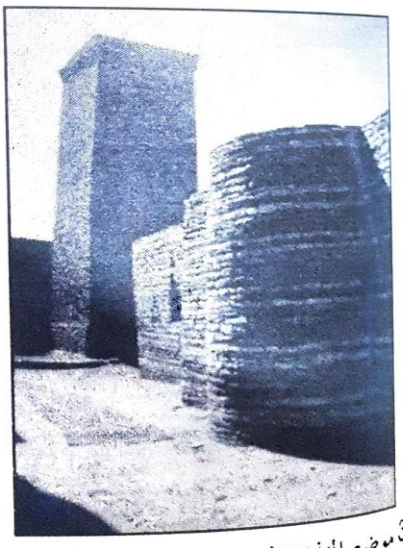

الشكل 35 موضع المئذنة الموازي لجدار القبلة ببيت الصلاة

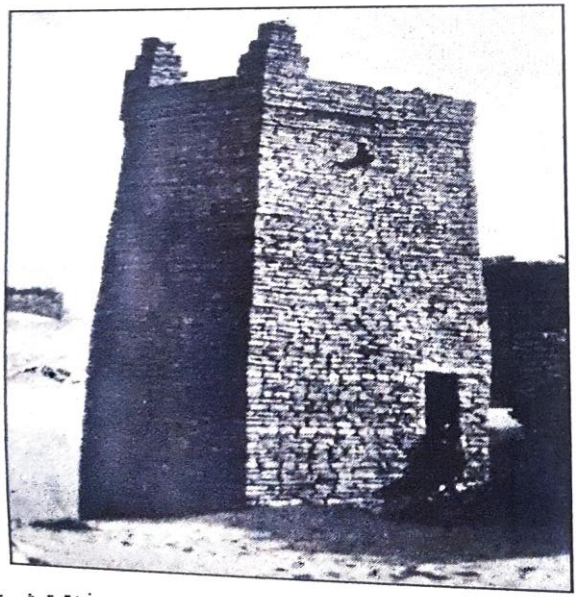

الشكل 36 ركام مئذنة آغريجيت المقتبسة من مئذنة تيشيت
نقلا عن دومنيك مونية

[1] –صور لمئاذن بعض مساجد تيشيت في الفترة الحديثة والمعاصرة

الملحق رقم 06[1]

نماذج من المآذن الصحراوية ذات جذع هرمي

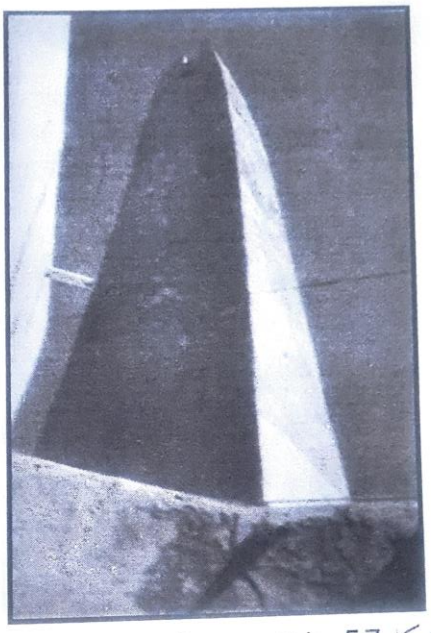

الشكل 57 مئذنة مسجد غرداية بوادي المزاب
نقلا عن أندرى رافرو

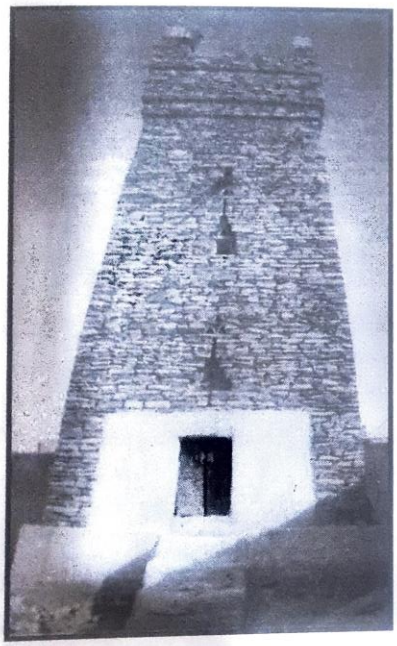

الشكل 58 مئذنة مسجد شنقيط

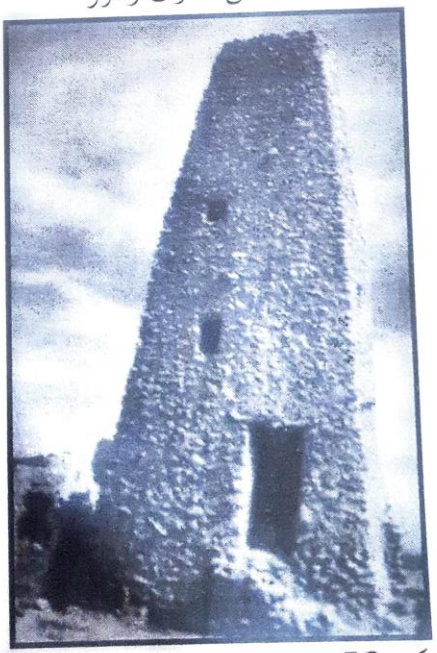

الشكل 59 مئذنة مسجد واحة سيوة بمصر
نقلا عن أسامة النحاس

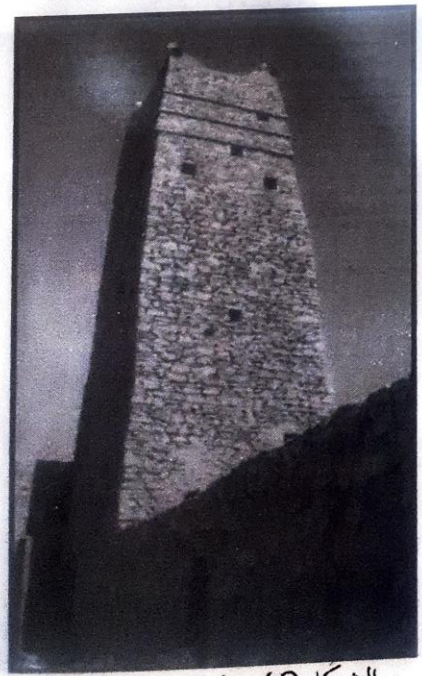

الشكل 60 مئذنة مسجد ودان

[1] –صور لنماذج مآذن بحواضر الصحراء الكبرى

الملحق رقم 07

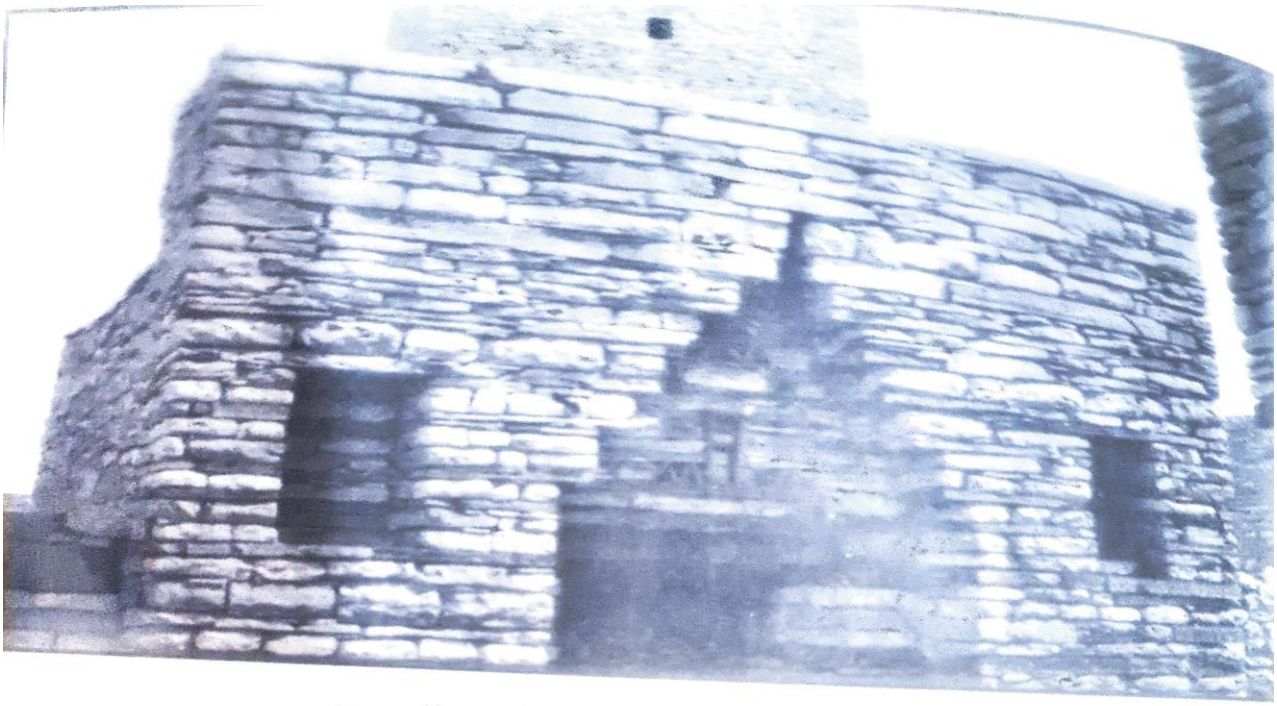

الشكل 27 : واجهة المدخل الغربي للمسجد

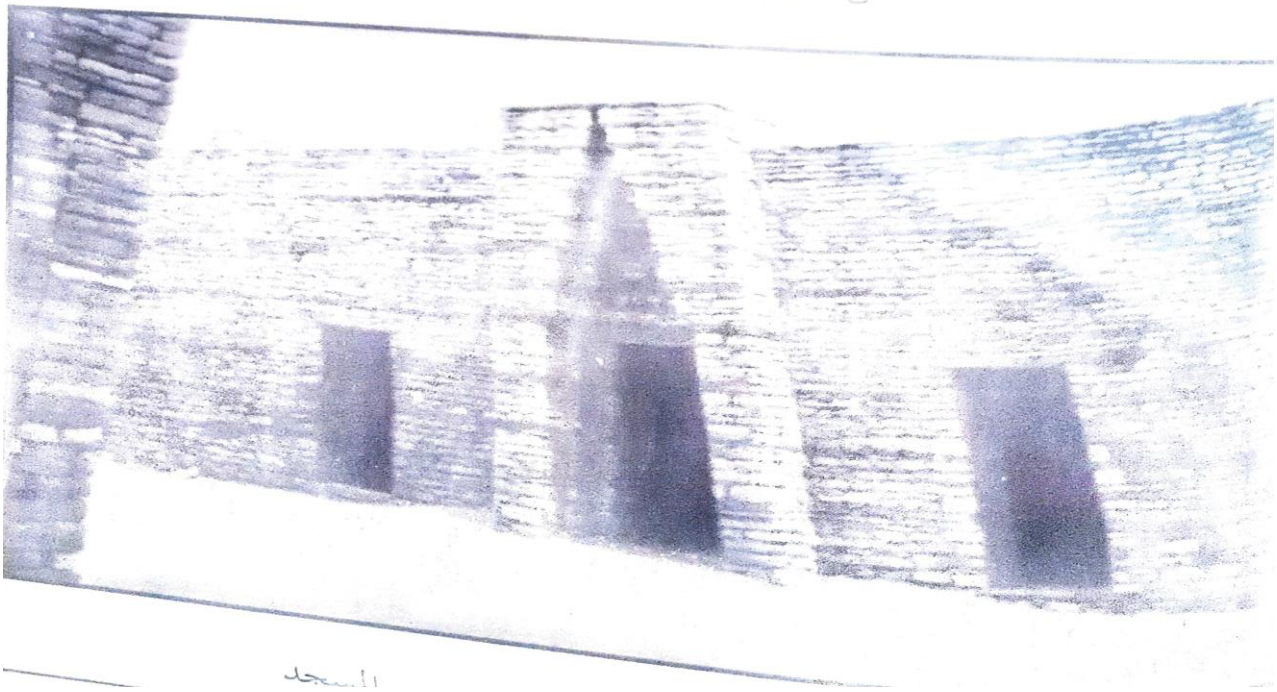

المسجد

الملحق رقم 08

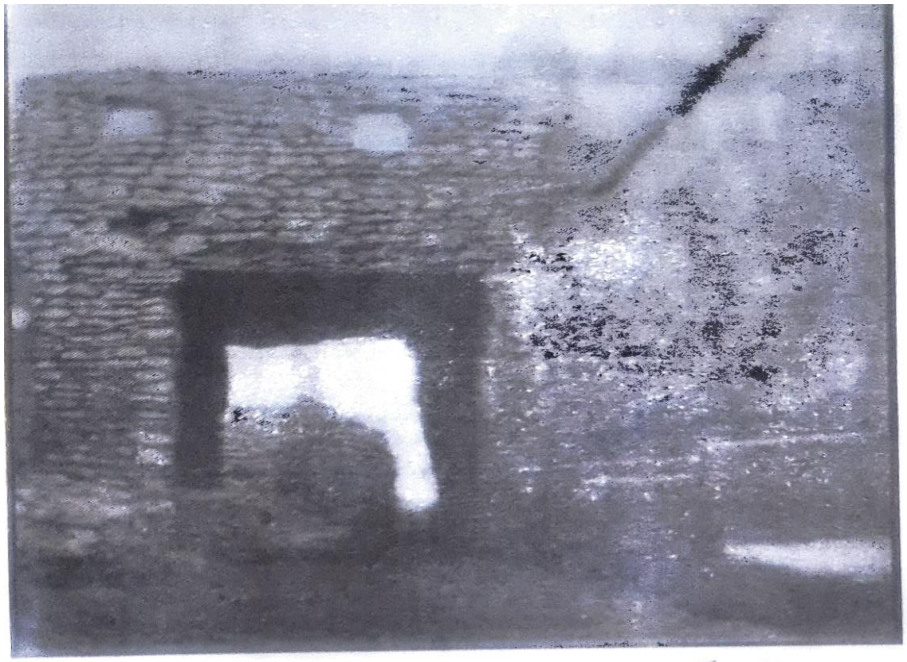

الشكل 2 سقيفة المحاجيب بولاته
نقلا عن جورج دي شميه

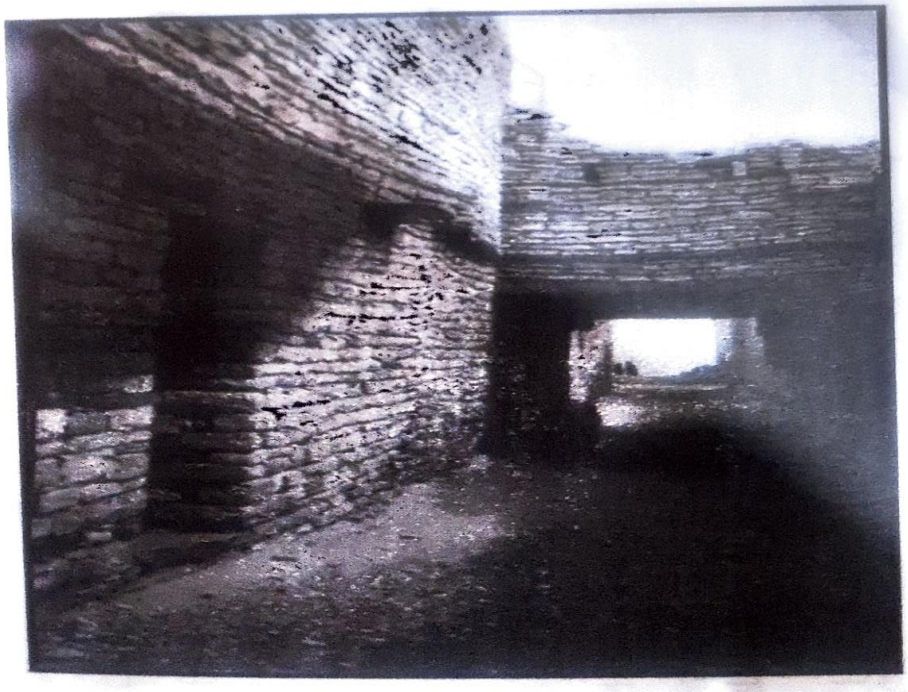

الشكل 3 سقيفة الشريف المختار بتيشيت

الملحق رقم 09

حة فنية تعود للقرن 17 تصور قافلة صحراوية نقلا عن غو

المصادر والمراجع

***المصادر والمراجع باللغة العربية**

1 –احمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم ادباء شنقيط، مطبعة المدني، القاهرة، 2008م.

2– خليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة ...والرباط، مكتبة المنتدى الإسلامي، تونس 1987م.

3–محمد بوزنكاض، الصحراء في العلاقات المغربية الافريقية، ط1، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2015م.

4–محمد سالم بن عبد الحي، جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تحقيق محمد ناعمي، الرباط1992م.

5–عبد الودود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط حتى نهاية القرن الثاني عشر–(18) مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2015م.

6–البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور "معجم تراجم العلماء في موريتانيا وما يليها من مناطق الصحراء والسودان" تحقيق عبد الودود ولد عبد الله، احمد جمال ولد الحسن، دار نجيبويه، القاهرة، 2010.

7 –حماه الله ولد السالم، تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007م.

8–حماه الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنكيطي"موريتانيا"، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2010م.

9 –حماه الله ولد السالم، تاريخ موريتانيا قبل الاحتلال الفرنسي، ط1 دار الكتب العلمية، بيروت، 2017م.

10–احمد بن سيد، ظاهرة الدولة في المجتمع الموريتاني800–1380هـ، رسالة دبلوم عال، منشورات جامعة محمد الخامس، 1979.

11–محمد المختار، الرحيل الى الدولة، دراسة في تاريخ المجتمع والسلطة في موريتانيا(1961–1978م)، ط1 المكتبة الوطنية بالجمهورية الإسلامية الموريتانية، 2020م.

12–بول مارتي، قبائل الحوض والساحل، تعريب محمد محمود ودادي، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية، 2001.

13 -محمدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، منشورات معهد الدراسات الافريقية، الرباط، 2001.

14-عبالقادر زبادية: الحضارة العربية والتاثير الأوروبي في افريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989م.

15-جبريل ت.نياني، مالي والتوسع الثاني للماندينغ ، تاريخ افريقيا العام ، اليونسكو، باريس1988م، ج4.

16-إبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، دراسات في التاريخ القومي الافريقي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م.

17-بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، ط2 دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان 1992م.

18-ابن الخطيب، الإحاطة في اخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط2 الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة 1973.

19-بول مارتي، القبائل البيضانية في الحوض والساحل، تعريب محمد محمود ودادي، طرابلس2001م.

20 -سيسوكو، السونغاي من القرن 12-16، تاريخ افريقيا العام، اليونيسكو، باريس1988م، ج4.

21-محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغرب، دار الرشيد، بغداد 1982م.

22-إبراهيم احمد فال، التراث الثقافي والمعماري لمدينة ولاتة التاريخية، ط1، دار كنوز التراث، المملكة المغربية، 2021م.

23 -صالح الناصري، الحسوة البيسانية في علم الانساب الحسانية، المعهد الموريتاني للبحث، نواقشوط 1998م.

24-احمد مولود ولد ايده، الصحراء الكبرى مدن وقصور، دار المعرفة، الجزائر 2009م، ج1.

25-محمد الأمين ولد الكتاب، وادان احدى اقدم حواضر بلاد شنقيط، ط1 المكتبة الوطنية الموريتانية، 2020م.

26 -ابن حامد(المختار)، حياة موريتانيا، الجزء الثقافي، تونس، 1990م، ص198.

27-القبلي محمد، مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، مجلة كلية الاداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع3، مج4، 1984.

28-محمد يوسف مقلد، موريتانيا الحديثة او العرب البيض في افريقيا السوداء، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960م.

29-الناني ولد الحسين، إمارة أولاد امبارك في الحوض، رسالة غ م، كلية الاداب، جامعة نواكشوط، 1984.

30-عبد الهادي حميتو، حياة الكتاب وادبيات المحضرة صور من عناية المغاربة بالكتاتيب والمدارس القرآنية، ط1 منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2006، ج1.

31-فاطمة دهوز، لحبيبة آحايك، أعلام اللغة والنحو في الصحراء وشنقيط، ضمن كتاب الصحراء في العلاقات المغربية الافريقية، تنسيق محمد بوزنكاض، دار ابي الرقراق للطباعة والنشر، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2015م.

32 -ابي علي يحي بن الشيخ يربان القلقمي، أعلام الشناقطة في الحجاز والمشرق جهودهم العلمية وقضاياهم العامة، من القرن الخامس الى القرن الخامس عشر الهجريين، ط1، دار النشر الدولية، 2009م.

33 -مجلة دعوة الحق، الصحراء ارض العلم والصلاح، ع400، جوان 2011.

34-ثقافة الصحراء، مقوماتها المغربية وخصوصياتها، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية، سلسلة ندوات، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2003م.

35-محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ط1، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2003.

36 -محمد المختار ولد السعد، موريتانيا في العهد الحساني ملامح التحولات الاجتماعية والسياسية من القرن 14 الى 19م، ضمن كتاب "تاريخ موريتانيا فصول ومراجعات"، نواكشوط، 1999م.

37-محمد المختار ولد السعد، دراسات في التاريخ الموريتاني، مقاربات منهجية ومعالجات سوسيو ثقافية، دار جسور عبدالعزيز، نواكشوط-موريتانيا، 2017.

38 -خديجة بنت الحسن، إمارة الترارزة في عهد سيدي بن محمد الحبيب، جامعة تونس الأولى، شهادة الكفاءة في البحث (989-1990).

39 -محمد اليدالي، "أمر الولي ناصر الدين" ضمن الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، تحقيق محمذن بن باباه، بيت الحكمة، تونس1991.

40-محمد المحجوب ولد بيه، موريتانيا جذور وجسور، ط1، مكتبة القرنين 21/15 للنشر والتوزيع، انواكشوط، موريتانيا، 2016.

41-بن عبدالوهاب الناصري، الحسوة البيسانية في علم الانساب الحسانية،.

42-برت ميتشل، فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجارة عبر الصحراء، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس 1981.

***المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:**

1 -Chennafi, (M), sur les traces d'Awdagust : les tegdawast et leur ancienneté : recherches sur Aoudagost, paris, 1970, p10.

2 -Abittbol.M , Le Maroc et le commerce transsaharien, [1]

3 -Coppolani Xavier, Mauritanie Saharienne (Novembre 1903 à Mai 1904), I 'Harmattan, Paris, 1999.

4 -Marty Paul, Etude sur l'Islam et les tribus maures, les Brakna, Ernest Leroux, Paris, 1921.

5 -MAUNY(R), Tableau géographique.

6-Meunié (Jacque), Cités Anciennes de Mauritanie. Librairie. KLINCKSUECK. Paris, 1961.

فهرس الدروس

الرقم	المحاور	الصفحات
01	مقدمة المطبوعة	7-6
02	الدرس الأول: التعريف بالمادة	9-8
03	الدرس الثاني: موريتانيا الجغرافيا واصول التسمية	16-10
04	الدرس الثالث: أصول السكان وتشكل المجتمع	20-17
05	الدرس الرابع: من دولة المرابطين الى بني حسان	26-21
06	الدرس الخامس: حرب شربة الكبرى 8-9هـ/ 14-15م	31-27
07	الدرس السادس: التحولّات السياسية والبشرية في موريتانيا بعد حروب شربه	35-32
08	الدرس السابع: نشأة المدن والحواضر الموريتانية	41-36
09	الدرس الثامن: البنية الاجتماعية في موريتانيا الحديثة	47-42
10	الدرس التاسع: الحركة الثقافية والفكرية في موريتانيا	53-48
11	الدرس العاشر: المحاضر الموريتانية نشأتها وأدوارها	60-54
12	الدرس الحادي عشر: القضاء في بلاد شنقيط	66-61
13	الدرس الثاني عشر: الإمارات الموريتانية الحديثة	71-67
14	الدرس الثالث عشر: القوافل والطرق التجارية في موريتانيا الحديثة.	78-72
15	الدرس الرابع عشر: المستكشفون الأوربيون في موريتانيا	83-79
16	خاتمة المطبوعة	84
17	الملاحق	94-85
18	المصادر والمراجع	99-95
19	الفهرس	100